

سمير فراج



شعراء

قتلهم شعراءهم

مكتبة مديونية الصغير



928

شعراء
قتلهم
شعرهم

الناشر : مكتبة مدبولي الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز

تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع : ١٣٠٦٠ / ٩٦

الترقيم الدولي : 7-014-236-977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٩٩٧م - ١٤١٧هـ

كسمبيوتر : كايرو ميديا

شعراء قتلتهم شعرهم

سمیر مصطفی فراج

إهداء

إلى قُوتَي عيني

" لبنى " و " نزار "

هذا هو الشعر " فلا تقربا هذه الشجرة "

أبوكما

سمير فراج

شعراء قتلهم شعرهم

هَدْبَةُ بْنُ خَشْرَمَ

قتل شاعراً... وقتله بيت شعر

هو هذبة بن خشرم بن كرز من بنى عامر بن ثعلبة من بادية الحجاز، وكان شاعرا متقدماً
فصيحاً وراوية للحطيثة. كان هذبة مع رهط من قومه فى طريقهم من الشام للحجاز
قاصدين الحج وكان معهم زيادة بن زيد وهو من بنى رقاش بن قره وكانت مع هذبة أخته
فاطمة فتغزل بها زيادة قائلاً:

عوجى علينا واربعى يافاطما مادون أن يرى البعير قائما

الأتريمن الدمع منى ساجما حذار دار منك لن ثلاثما

فمرجت مطرداً عرامما نعماً يبد القطف الرواسما

وأطال زيادة فى قصيدته فبغضب هذبة ورد عليه بأن تغزل فى أخته وكانت تسمى أم
خازم، فقال:

لقد أرانى والغلام الخازما نزجى المطى ضمراً سواهما

متى تظن القلص الرواسما والجلة الناجية المياهما

يبلغن أم خازم وخازما إذا هبطن مستخيراً قائما

فسبه زيادة، ورد عليه هذبة وطال بينهما ذلك حتى صاح بهم القوم: اركبا لاحتكما
الله، فإننا قوم حجاج، وخشوا أن يقع بينهما شر فظلوا يعظونهما حتى سكت كل منهما على
ما فى نفسه. لكن هذبة كان أشد حنقا على زيادة ورأى أنه غلبه وضامه فقد تغزل فى أخته
فاطمة وهى حاضرة سامعة، بينما تغزل هذبة فى أم خازم أخت زيادة وهى غائبة لاتسمع
غزله فيها فمضيا ولم يكلم أحدهما الآخر حتى قضيا حجهما وعادا إلى مضارب قوميهما.
ومن يومها صارت عداوة بين هذبة وزيادة، ظهرت بوادرها فى المعارضات الشعرية، فكان

كل منهما يحاول العلو على صاحبة في الشعر ويرد الثاني محاولاً أن يبرز قول الأول، ومن ذلك ما قاله زيادة:

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| أراك خليلاً قد عزمت التنبجبا | وقطعت حاجات الفؤاد فأصحبها |
| فهلأ صرمت والخبال متينة | أميمة إن واشى وشى وتكذبها |
| إذا خفت شك الأمر فارم بعزيمة | غيابته يركب بك الحزم مركبا |
| يلام رجال قبل تجريب غيبهم | وكيف يلام المرء ختى يجربها |

فرد عليه هذبة بقوله:

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| تذكر شجواً من أميمة منصبا | تليداً ومتناً من الشوق مجلبا |
| تذكر حبا كان في ميمة الصبا | ووجدأ بها بعد المشيب معباً |
| إذا كان ينساها الفؤاد ذكرتها | فيألك من عنى الفؤاد وعدباً |
| غداً في هواها مستكينا كأنه | خليع قداح لم يجد متنبها |

لكن هذبة لم يشفه ما قال من شعر ولم يشعر بزهو الانتصار على خصمه، فلم يزل يتحين الفرصة للانتقام من زيادة حتى وجدها فقتله. وكان سعيد بن العاص واليا على المدينة، فهرب هذبة مخافة القصاص، فجاء بن العاص بأهله وحبسهم، ولما علم هذبة بذلك، رجع وأمكن من نفسه ليخلص أهله، فأرسله بن العاص إلى معاوية ليرى فيه أمره، فلما صاروا بين يدي معاوية، قال عبد الرحمن أخو زيادة: يا أمير المؤمنين أشكو إليك مظلمتي وقتل أخى وترويع نسوتي.. فقال معاوية: يا هذبة قل، فقال هذبة: إن شئت أن أقص عليك قصتنا كلاماً أو شعراً فعلت، قال: لا، بل شعراً، فقال هذبة مرتجلاً:

رُمينا فرامينا فصادف رمينا منايا رجال فى كتاب وفى قدر
وانت أمير المؤمنين فمائلنا وراءك من معدى ولاعنك من قصر
فإن تك فى أموالنا لم نضق بها ذراعاً وإن صبراً فنصبر للصبر

فقال له معاوية: أراك قد أقررت بقتل صاحبهم

قال هذبة: هو ذاك

ولم يكن لزيادة ولد إلا فتى صغير يسمى «المِسُور» لم يبلغ الحلم فقال معاوية لعبد الرحمن أخى زيادة: إنك لاتؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق، والمِسُور أحق بدم أبيه، ورده معاوية إلى المدينة فحبس بها ثلاث سنوات حتى بلغ المِسُور، وخلال سنوات حبسه كان هذبة يرسل إلى عبد الرحمن يستعطفه ويرجوه أن يقبل الدية، لكن عبد الرحمن أياسه من ذلك وأصر على القصاص. ولما بلغ المِسُور بن زيادة الحلم أخذه عمه عبد الرحمن إلى والى المدينة سعيد بن العاص، فأخرجوا هذبة ليقتل وبينما كان هذبة ماشياً من السجن للقتل، التفت فرأى زوجته وكانت من أجمل النساء، فقال لها:

أقلى على اللوم يأم بوزعا ولا تعجبنى مما أصاب فأوجعا
ولا تنكحى إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأثرا
وحلى بلى أكرومة وحمية وصبرا إذا ما الدهر عض فأسرعا

فقالت زوجته للوالى: إن لهذبة عندى وديعة فأمهله حتى آتية بها. فقال لها الوالى: أسرعى فإن الناس قد كثروا. فذهبت إلى جزار فى السوق وأخذت منه شفرته ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها ثم رجعت إلى هذبة وقالت: أترانى متزوجة بعد ماترى؟

قال هديبة: لا، الآن طابت نفسى بعد بالموت، ثم التفت فرأى أبويه فى أسوأ حال وقد توقعا الشكل، فقال لهما:

أبليانى اليوم صبراً منكما إن حزناً إن بدا بآدى شر
لا أراى اليوم إلا ميتاً إن بعد الموت دار المستقر
اصبراً اليوم فىنى صابر كل حى لقضاء وقدر

اقتربت ساعة هديبة، وبلغت القلوب الحناجر، فهذا أول من أُقيد منه فى الإسلام، وراحت العيون تتحاور والأنفاس تتنافر، وراحت أمه تذكر قول الكاهنة التى رأت أبناءها الأربعة فقالت لها: إن الذى معى يخبرنى عن بنيك هؤلاء بأمر، قالت وماهو؟ قالت: أما هديبة وأخوه حوط فيقتلان صبراً، وأما الواسع وسيحان فيموتان كمدأ.

أراد سعيد بن العاص أن يبذل محاولة أخيرة، فقال لعبد الرحمن أخى زيادة: اقبل الدية وأنا أعطيك مالم يُعطه أحد من العرب، أعطيك مائة ناقة حمراء، ليس فيها جداء ولا ذات داء فقال عبد الرحمن: والله لو نقبت لى قبتك هذه ثم ملأتها ذهباً، مارضيت بها من دم هذا الأجدع، فلم يزل سعيد يسأله ويزيد فى عرضه فىأبى، ثم قال عبد الرحمن: إنه قال بيتاً لو لم يقله لقبلت الدية أو صفحت بغير دية، والله لو أردت شيئاً من ذلك لمنعنى قوله:

لنجدعن بأيدينا أنوفكم ويذهب القتل فيما بيننا هدرا

فدفعوا بهديبة ليقتل فبدت فى عينيه حسرة، وماندم بشر على قول كما ندم هديبة على قوله هذا البيت، واستأذن فى أن يصلى ركعتين، فأذن له، فصلاهما وخفف، ثم التفت إلى الناس حوله وقال: لولا أن يُظن بى الجزع لأطلتهمما فقد كنت محتاجاً إلى إطالتهما، ثم

التفت إلى قوم زيادة قائلاً:

فإن تقتلونى فى الحديد فلانى قتلت أخاكم مطلقاً لم يقيد

فقال عبد الرحمن: والله لانتقلته إلا مطلقاً من وثاقه، ثم قال:

قد علمت نفسى وأنت تعلمه لأقتلن اليوم من لأرحمه

ثم دفع السيف إلى المسور بن زيادة وقال له: قم فاقتل قاتل أبيك، فقام المسور فضربه ضربتين قتله فيهما. ومات هذبة، أما امرأته التى جدعت أنفها وقطعت شفتيها فقد تزوجت بعده وأنجبت ولدين.

شعراء قتلهم شعرهم

كعب الأشقرى

هجا بن أخيه فقتله بتحريض من بن المهلب

هو كعب بن معدان الأشقري، من قبيلة الأزد، كان خطيباً وشاعراً، من المعدودين في الشجعان، وكان من أصحاب المهلب بن أبي صفرة وقد مدحه ومدح أبناءه ورافقهم في حروبهم مع الأزارقة، وقد أوفده المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج مبشراً بانتصاره على الأزارقة فأنشده من مدائحه فيهم قوله:

| | |
|----------------------------|---------------------------------|
| لولا المهلب مازرنا بلادهم | مادامت الأرض فيها الماء والشجر |
| ومامن الناس من حى علمتهم | إلا يرى فيهم من سيبكم الر |
| فما يجاوز باب الجسر من أحد | قد عضت الحرب أهل الجسر فأنجحروا |

فضحك الحجاج وقال له إنك لمنصف يا كعب، أخطيب أنت أم شاعر فقال شاعر وخطيب، فقال له كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوههم أيسنا منهم، فإذا لقيناهم بجهدنا طمعنا فيهم، قال الحجاج: فكيف كان بنو المهلب؟ قال: حماة للحرير نهاراً وفرسان بالليل أيقاظاً، قال صفهم رجلاً رجلاً، قال: المغيرة فارسهم وسيدهم، نار ذاكية وصعدة عالية، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، ليث غاب وبحر جم العباب، وجوادهم قبيصة ليث المغار وحامى الدمار، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدركة، فكيف لا يفر من الموت الحاضر والأسد الخادر وعبد الملك سم نافع وسيف قاطع، وحبيب الموت الزعاف، إنما هو طود شامخ وفخر باذخ. قال الحجاج: فأيهم أفضل؟ قال كعب: هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسن حال، أدركوا مارجوا، وأمنوا ماخافوا، وأرضاهم العدل وأغناهم النفل، قال: فكيف رضاهم عن المهلب؟ قال: أحسن رضى وكيف لا يكونون كذلك وهم لا يعدمون منه رضى الوالد ولا يعدم منهم بر الولد. فقال الحجاج: المهلب كان أعلم بك حيث بعثك وأمر له بعشرة آلاف درهم وأرسله إلى عبد الملك بن مروان بهذه البشرى، فأنشده كعب قوله في المهلب

وأولاده:

براك الله حين براك بحرأ
وفجر منك أنهارأ غزارا
بنوك السابقون إلى المعالى
إذا ما أعظم الناس الخطارا
كانهم نجوم حول بدر
درارى تكمل فاستدارا

فاستحسن عبد الملك قوله، وقال لمن حوله من الشعراء: يامعشر الشعراء، تشبهوننا بالأسد الأبخر، والجليل الوعر والملح الأجاج؟ ألا قلتم كما قال كعب فى المهلب وولده، وأنشدهم قصيدة أخرى لكعب يمدح فيها المهلب.

وهكذا عرف كعب الأشقرى بولائه للمهلب وأبنائه من بعده خاصة يزيد الذى كان يقربه ويخلع عليه العطايا والهباء.

ولمكانته عندهم كانوا لا يسمحون للشعراء بهجائه، بل المهلب نفسه تدخل بين الأزد - قبيلة كعب - وعبد القيس حينما قامت بينهما حرب، فسكنها وأصلح بينهما وتحمل ما أحدثه كل فريق وأدى دياته، لكن كعبا هجا عبد القيس بقوله:

إنى وإن كنت فرع الأزد قد علموا
أخزى إذا قيل عبد القيس أخوالى
فهم أبو مالك بالمجد شرفنى
ودنس العبد عبد القيس سربالى

وكان فى عبد القيس شاعر هجاء يسمى زياداً الأعجم، وقد بلغه قول كعب فغضب وقال: يا عجباً للعبد بن العبد بن الحيتان والسرطان، يقول هذا فى عبد القيس وهو يعلم موضعى فيهم والله لأدعنه وقومه غرضاً لكل لسان، ثم قال يهجوه:

نبئت أشقر تهجوننا فقلت لهم
ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلقوا

لا يكثر وإن طالت حياتهمُ ولو ييول عليهم ثعلب غرقوا
قوم من الحسب الأدنى بمنزلة كالفقع بالقاع لأصل ولا ورق
إن الأشاقر قد أضحوا بمنزلة لو يرهنون بنعلى عبدنا غلقوا

فشكاه كعب إلى المهلب وقال له: إنك المقصود بهذا الهجاء، فقال المهلب: أنت أسمعنا هذا وأطلقت لسانه فينا به وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد، فاكفف عن ذكره فأنت الذى بدأته، ثم دعا بزياد فعاتبه، فقال زياد: أيها الأمير، قد سمعت ما قاله فى وفى قومى، فإن كنت ظلمته فانتصر له، وإلا فالحجة عليه، ولا حجة على امرئ انتصر لنفسه ولحسبه وعشيرته، ولولاك أيها الأمير ما قصرت فى هجائه. فأقسم المهلب عليهما أن يصطلحا، فكف كل منهما عن الآخر.

وهكذا كان المهلب يدافع عن كعب بمنصبه ويدافع عنه كعب بشعره. وكان الحجاج قد كتب إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطنه ويضعفه ويعجزه فى تأخير أمرهم ومطاوالتهم.

فقال المهلب لرسول الحجاج: إنما البلاء أن الأمر لمن يملكه لا إلى من يعرفه، فإن كنت نصبتى لحرب هؤلاء القوم على أن أدبرها كما أرى، فإن أمكنتنى الفرصة انتهرتها، وإن لم تمكنى توقفت، فأنا أدبر ذلك بما يصلحه، فإن أردت منى أن أعمل وأنا حاضر برأيك وأنت غائب، فإن كان خيراً فلك، وإن كان شراً فعلى فابعث من رأيت مكانى.

فقام كعب الأشقرى فأنشد أمام رسول الحجاج قوله:

إن بن يوسف غره من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحابة الأقطار

من أرض سابور والجنود وخيلنا . مثل القذاح بريتها بشفار
 من كل خنذير يرى بلباناه وقع الطبقات مع القنا الخطار
 ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كل مخالف الأقتار
 فدع الحروب لشيبها وشبابها وعليك كل خزينة معطار

فبلغت هذه الأبيات إلى الحجاج فكتب إلى المهلب يأمره بإرسال كعب إليه، فأعلم
 المهلب كعباً بذلك، وأرسله إلى عبد الملك بن مروان ومعه رسالة يسترضيه فيها عن كعب،
 فرضى عبد الملك عنه، ولمكانة الحجاج عند بنى أمية رأى عبد الملك أن يرسل كعباً إليه
 بكتاب منه وفيه يقسم عليه أن يعفو عنه ويعرض عما بلغه من شعره. فلما وصل كعب إلى
 الحجاج قال له: إيه يا كعب.

ورأى معاودة الدباغ غنيمة، فقال كعب: أيها الأمير والله قد وددت في بعض ماشاهدته
 في تلك الحروب وأزماتها وفي ما يوردنا المهلب من خطرها أن أنجو منها وأكون حجاجاً أو
 حائكاً، فقال له الحجاج: أولى لك، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعلك ما أسمع، فالحق
 بصاحبك ورده إلى المهلب.

ويبدو أن علاقة كعب لم تكن طيبة مع يزيد بن المهلب فكان يحرض عليه الولاة
 ويدفعهم إلى ترك أعماله، وكان يزيد قد ولي عمر بن عمير بلدة بحرية بين البصرة وعمان
 يقال لها «الترم» فقال له كعب: أنت شيخ من الأزديوليك «الترم» ويولى ربيعة الأعمال
 السنينة! ثم أنشده قوله:

لقد فازت ربيعة بالمعالي وفاز اليحمدي بمهندم
 فإن تك راضيا منهم بهذا فزادك ريناً غماً بغم

فلما سمع عمرو بن عمير اليمحمدى هذا الشعر من كعب أنف أن يقبل هذه الولاية ورد
عهد يزيد عليه، فحلف يزيد ألا يستعمله سنة، فكانت سنة جدب وفقر على عمرو الذى
ندم على ترك هذه الولاية وقال لكعب:

لو كنت خليتني ياكعب متكناً فى دور زمّ لما أقفرت من علف
ومن نبيذ ومن لحم أعل به لكن شعرك أمر كان من خرفى
إن الشقى يـمـرو من أقام بها يقارع السوق من بيع ومن سلف

ولما عزل يزيد بن المهلب عن خراسان ووليها قتيبة بن مسلم مدحه كعب، ونال من يزيد
وثلبه وهجاه، ثم بلغه أن يزيد قد وليها مرة أخرى، فهرب كعب تاركاً مرواً وخراسان كلها
إلى عمان وأقام بها فترة ثم كرهها لسوء أحواله بها ولم يجد بها من يمدحه ويقربه ويعطيه،
فكتب إلى يزيد بن المهلب معتذراً:

بئس التبذل من مرو وساكنها أرض عمان وسكنى تحت أطواد
يضحى السحاب مطيراً دون منصفها كأن أجبالها علت بفرصاد
يالهف نفسى على أمر خطلت به وماشفيت به غمرى وأحقادى
أنيت خمسين عاماً فى مديحكُم ثم اغتررت بقول الظالم العادى
أبلغ يزيد قرين الجود مألوكه بأن كعباً أسير بين أصفاد
فلإن عفوت فبيت الجود بينكمُ والدهر طوران من غى وإرشاد
وإن مننت بصفع أو سمحت به نزعت نحوك أطنابى وأوتادى

لكن يزيد لم يسامحه ولم يصف له على الرغم من أن أبنه مجزأة رجاء فى ذلك، فداهته

يزيد حتى رجع وتخير له قاتلاً من قرابته هو ابن أخيه الذى كانت بينهما عداوة وتباعداً قد
هجاه كعب بقوله:

إن السواد الذى سربت تعرفه ميراث جديك عن آبائه النوب

أشبهت خالك، خالك اللوم مؤتسياً بهديه سالكاً فى شر أسلوب

فلم يجد بن المهلب إلا ذلك الفتى ليقتل عمه، وقد أغراه بالمال.

شعراء قتلهم شعرهم

عبيد بن الأبرص

رثى نفسه.... فقتله المنذر بن ماء السماء

هو عبيد بن الأبرص بن جشم، من بنى أسد التى قتلت حُجراً ملك كندة وأبا امرئ القيس.

اعتبره محمد بن سلام الجمحى من فحول شعراء الجاهلية ووضعه فى الطبقة الرابعة مع طرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة وعدى بن زيد. وقد أحاطت الأساطير بسيرة عبيد بن الأبرص كما لم تخط بشاعر قبله، فهناك قصة حول قوله الشعر، أو هى أسطورة إذا أعملنا عقولنا فيها، ونحن لا نملك غير ذلك.

تقول القصة إن عبيدا كان رجلاً فقيراً وقد أقبل ذات يوم بغنمه يسقيها ومعه أخته مأويا، فلما ورد الماء منعه رجل من بنى مالك وصدّه صداً عنيفاً، فرجع حزينا مهموماً لا يدرى ما يفعل ولا يجد سبيلاً على هذا الرجل فاستظل بشجرات ونام، ونامت أخته إلى جواره، فنظر إليهما خصمه وقال راجزاً:

ذاك عبيد قد أصاب ميا ياليتك ألحقها صبيا

فحملت ووضعت ضاويًا

وعلى الرغم من أن عبيداً كان جاهلياً إلا أنه لم يجد من يستنصره على هذا الرجل واقتراءاته إلا الله، فرفع يديه مبتهلاً قائلاً: اللهم إن كان هذا ظلمنى ورمانى بالبهتان فأدلى منى - أى اجعل لى منه دولة وانصرنى عليه - ووضعه رأسه فنام.

ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر، فأتاه آت فى المنام بكبة من شعر فألقاها فى فمه، ثم قال له قم، فقام وهو يرتجز هاجياً بن مالك وكانوا يسمون بنى الزنية، فقال فيهم:

يابنى الزنية ما غركم لكم الويل بسريال حُجُر

ثم أصبح عبيد بن الأبرص بعد ذلك شاعر بنى أسد الذي لا يدافعه أحد .
وفي أسطورة أخرى كان عبيد مسافراً في ركب من قومه وبينما هم يسرون إذا بشعبان
يتملك على الرمال الملتهبة فاتحاً فمه من شدة العطش، وكانت مع عبيد جرعة ماء قليلة
لا يملك غيرها، فنزل وسقى الشعبان الجرعة كلها حتى روى وانتعش وانساب في الرمال. فلما
جن الليل ونام القوم هربت رواجلهم فلم يروا أثراً لشيء منها، فقام كل واحد منهم يبحث
عن راحلته، فتفرقوا، وقد أيقن عبيد أنه هالك لا محالة، وإذا هو بهاتف يهتف به قائلاً:

يا أيها الساري المضل مذهبة دونك هذا البكر منا فاركبه
وبكرك الشارد أيضاً فاجنبه حتى إذا الليل تجلى غيبه
فحط عنه رحلة وسيه

فقال عبيد: نشدتك الله إلا أخبرتنى من أنت؟

فقال له الهاتف:

أنا الشجاع الذي ألفيته رمضاً في قفرة بين أحجار وأعقاد
فجدت بالماء لما ضن حامله وزدت فيه ولم تبخل بإنكاد
الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
فركب عبيد الجمل وظل يبحث عن ناقته حتى وجدها ثم جنبها - أي قادها بجانبه -
فبلغ أهله مع الصباح فنزل عنه وحل رحله وخلاه فغاب عن عينه.

من الواضح أن هذه القصة أسطورة صاغت أسفار العرب الطويلة في رحلة من رحلات
الشتاء أو الصيف، حيث الليالي لاتقطعها الرواحل وإنما تقطعها الأسمار العذبة والأشعار

البديعة والأخبار الغريبة.

ويحكى أسطورة ثالثة، سيف الكاتب، الذى ولى ولاية فنزل بيت صديق له مر عليه، فأصابوا من الطعام والشراب ما أصابوا، ثم غلبهم النبيذ فتاموا، فانتبه سيف من نومه فإذا بكلب قد دخل على كلب صاحب البيت، فأخذ يتصافحان وقد فرح كل منهما بصاحبه، ثم أخذ الكلب الزائر يخبر صاحبه عن طريقه وطول سفره، وسيف لا يتكلم من كلامهما شيئاً، وقال له: هل عندك شيء تطعمني؟ قال نعم قد بقى لهم فى موضع كذا وكذا طعام وليس عليه غطاء، فذهبا إليه وأكلاه، ثم سأله نبيذاً فقال: نعم، فذهبا إليه فشرباه، ثم قال له: هل تطربنى بشيء؟ قال: إى وعيشك، صوت كان أبو زيد يغنيه فيجيده، ثم غنى الكلب صاحبه من شعر عبيد بن الأبرص قوله:

طاف الخيال علينا ليلة الوادى لآل أسماء لم يلهم ليماد

إنى اهتديت لركب طال سيرهم فى سبب بين دكدك وأحقاد

فلم يزل الكلب يغنى صاحبه حتى فنى النبيذ، ثم استأذن الكلب الزائر فى الانصراف، فأذن له صاحبه.. ومضى.

يقول سيف الكاتب صاحب القصة: فخفت والله على نفسى أن أذكر ذلك لصاحب المنزل، فأمسكت. وما أذكر أنى سمعت أحسن من ذلك، إن لم تكن هذه القصة أسطورة فهى حلم رآه سيف الكاتب، ويبدو أن صاحبه الذى استضافه قد أحسن عشاءه وسقايته فلم يستطع أن يميز بين الحلم والحقيقة لفرط ما كان غارقاً فيه من شبع ورى.

أو ربما كان هناك شيء فى نفس سيف تجاه أبى يزيد المغنى، فحاك هذه القصة وحبكها ليقول للناس إن غناء الكلاب أحسن من غناء أبى يزيد.

وقد عاصر عبيد بن الأبرص امرأ القيس وكانت له جولة معه بعد أن رفض ماعرضه بنو
أسد من دية لقتل أبيه أو تقديم شريف من أشرافهم مقيداً ليقتل بدم حُجر، لكنه أمهلهم
حتى تضع الحوامل ما في بطونها وقد توعدهم قائلاً: ثم إنكم ستعرفونني في فرسان قحطان
أحكم فيكم بالسيوف وشبا الأبننة حتى أشفى نفسي وأنال ثأري، فقال عبيد في ذلك:

| | |
|---------------------|------------------------|
| ياذا المخوفينا بقصد | مثل أبيه إذلاً وحينا |
| أرغمت أنك قد قت | لست سراتنا كذباً ومينا |
| هلا على حجر بن أم | قطام تبيكي لاعلينا |
| إننا إذا عض الثفاف | برأس صددتنا لوينا |
| نحني حقيققتنا وبعب | عض الناس يسقط بين بينا |
| هلا سألت جموع كني | دة يوم ولوا أين أيننا |
| أيام نضرب هامهم | بيواتر حتى انحنينا |
| وجموع غسان الملو | ك أنينهم وقد انطوينا |
| لحقا أياطلهن قد | عاجن أسفاراً وأينا |
| نحن الألى نأجمع جمو | عك ثم وجههم إلينا |
| واعلم بأن جيادنا | آلين لايقضمين ديننا |
| ولقد أبحننا ما حميت | ولامبيح لما حمينا |
| كم من رئيس قد قتل | ناه وضيم قد أبينا |

ولرب لسيد معشر ضخم الدسيغة قد رمينا

ولكن امرأ القيس كان مشغولاً بشار أبيه فلم يرد عليه ثم دارت رحي الحرب بين كندة
وبنى أسد حتى قتل قيصر الروم امرأ القيس وانتهت هذه الحرب.

مقتله

كان للملك المنذر بن ماء السماء يومان، يوم يؤس ويوم نعمة، فإذا كان في يوم نعمة أتى
بأول من يراه فحياه وكساه وأعطاه من إبله مائة، ونادمه يومه، فإذا كان في يوم يؤسه أتى
بأول من يراه فيأمر به فيذبح، وبينما النعمان جالس في يوم يؤسه إذ أشرف عليه عبيد بن
الأبرص، فقال لرجل كان معه: من هذا الشقي؟ فقال له: هذا عبيد بن الأبرص الأسدي
الشاعريم فأتى به، فقال له الرجل الذي كان معه: أتركه أبيت اللعن، فإني أظن أن عنده من
حسن القريض أفضل مما تدركه في قتله، فاسمع منه، فإن سمعت حسنا استزدته وإن لم
يعجبك فما أقدرك على قتله. فنزل المنذر وطعم وشرب وهو جالس وبينه وبين الناس
حجاب يراهم منه ولا يرونه، فدعا بعبيد من وراء الستر:

فقال لعبيد صاحب له: هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد؟

فقال: أئتلك بحائن رجلاه

فقال: ماترى يا عبيد؟

قال: أرى الخوايا عليها المنايا

فقال: فهل قلت شيئاً؟

قال عبيد: حال الجريص دون القريض (وهو يقصد أنه قد غص بريقه)

فقال: أنشدني: أقفر من أهله ملحوب

لكن عبيداً لم يستطع أن يقولها وعزت عليه نفسه فرثاها بقوله:

أقفر من أهله عبيد فليس يبدى ولا يعميد

عنت له خطة نكود وحان منهاله ورود

فقال له صاحبه: أنشدني ويحك

فقال:

هي الخمر تُكنى بأم الطلى كما الذئب يكنى أبا جعدة، وهو هنا يشبه المنذر بالذئب الذي
يكنيه الناس بأبي جعدة أي أبو الفعال الحسنة ولكن أفعاله كلها سوء وهو يقصد أن المنذر
لا ينذر أحداً بل يغدر بالجميع وأبي عبيد أن ينشدهم شيئاً مما أرادوا فأمر به المنذر فقتل.

شعراء قتلهم شعرهم

أبو العَبَر

كان أحمق العرب ، فقتلته شيعة على

هو أبو العباس محمد بن أحمد وينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب وكان في شبابه شاعراً معتدلاً جيد الشعر فلما شاخ ترك الجد وعدل إلى الحمق حتى إن تاريخ الأدب العربي لم يرَ شاعراً أحقق منه، ومع ذلك فقد كسب بحمقه أضعاف ما كان يكسبه الشعراء بالجد والجيد وحقق أيام المتوكل شهرة كبيرة وثراءً عظيماً.

وعلى الرغم من أنه كان بن عم الخليفة إلا أن الناس كانوا يحترقونه بل ويتعجبون من تقريب المتوكل له مع أنه معرة لبنى آدم جميعاً فضلاً عن أهله الأقربين.

فهو أحقق جاهل فاسق بينما كان قوم آخرون يرون أن هذه الصفات ليست متأصلة فيه وإنما هو يفتعلها للكسب بعد أن رأى أشعار أبي تمام والبحتري وغيرهما من كبار الشعراء لا تفيد شيئاً ولا تحقق ثراءً، وكان فريق ثالث يرى أن يكون الشعر جيداً جيداً أو بارداً بارداً مثل شعر أبي العبر، فكانوا يضربون بشعره المثل في السخف والبرود.

أنشده صاحبة أبو العناء، قول المأمون:

| | |
|--------------------|-----------------------|
| والحب إلا قـبـلـة | ومس كف وعـضـد |
| أو كتب فيـهـا رقى | أنفـذ من نفـث العـقـد |
| من لم يكن ذا حـبـة | فإنما يبـغـى الولـد |
| والحب إلا هـكـذا | إن نكح الحب فـسـد |

فقال أبو العبر: كذب المأمون وأخطأ وأساء، ألا قال كما قلت:

وباض الحب في قلبى فـلـوا ويلـى إذا فـرـخ

وأتبع هذا البيت بيتين لم تعرف العرب أفحش منهما ثم سأل صاحبه: كيف ترى؟

فقال: عجباً من العجب، قال أبو العبر: ظننت أنك تقول لا، فأبل يدي و أرفعها ثم سكت فبادر صاحبه وانصرف خوفاً من شره.

وكما كان للشعراء طقوساً في إنشادهم وإملائهم أشعارهم كانت لأبي العبر طقوسه التي تتناسب تماماً مع شخصيته، فقد كان يجلس على سلم وبين يديه إناء فيه ماء لحبس وحمأة وبجانبه قصبة طويلة وعلى رأسه نعل وفي رجله قلنسيتان بينما يجلس مستمليه في جوف بئر وحوله ثلاثة رجال يدقون بالهواوين حتى تكثر الضوضاء ويقل السماع ويملي على الرجل، فإن ضحك أحد من حضر قاموا فصبوا على رأسه من ماء «البلاعة» إن كان وضيعاً، فإن كان ذا مروءة رش عليه هو من مائها بالقصبة ثم يحبس في الكنيف إلى أن ينفض المجلس ولا يخرج منه حتى يغرم درهمين.

سأله أعرابي عن هذه المحالات التي يتكلم بها وكيف يصل إليها فقال: أبكر فأجلس على الجسر ومعى الخبر والورق فأكتب كل شيء أسمع من كلام الذهاب والجلأى حتى أملأ الورق من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً، فيجىء كلام ليس فى الدنيا أحقق منه.

ولم يكن سلوكه أقل حمقاً من شعره، وقد رآه أعرابي واقفاً على شجرة فى وادٍ بمنطقة سُرَّ من رأى وفى يده اليسرى قوس يرمى به كرات من الطين وعلى يده اليمنى عقاب، وعلى رأسه قطعة من رئة عنز ربطها فى جبل مشدوداً بأشوَطة وعلى شفثيه آثار من شراب التمر وكان عارياً يربط على خصره شعراً مفتولاً وقد شد فيه شص قد ألقاه فى الماء للسّمك. فقال له الأعرابي: خرب الله بيتك أى شيء هذا العمل؟ فرد عليه أبو العبر قائلاً: أصداد يا أحقق بكل جوارحى، إذا مر بى طائر رميته عن القوس وإن سقط قريباً منى أرسلت إليه العقاب، والرئة التي على رأسى يجىء الخدأ ليأخذها فيسقط فى الحبل وقد

جعلت فى طرفه الأنشودة، وشراب التمر على شفتى أصطاد به الذباب فأجعله فى الشخص
فيطلبه السمك فيقع فيه، والشخص فى خصرى فإذا مرت به السمكة أحسست بها فأخرجتها.
ويبدو أن أبا العبر قد أعيا المتوكل أمره ولم يستطع معاقبته عقاباً صارماً، لقرايته من
ناحية، ولأنه كان يظن به الجنون من ناحية أخرى، فكان يضعه فى المنجنيق ويرمى به إلى
الماء، فكان إذا علا فى الهواء صاح: الطريق الطريق، جاءكم المنجنيق، ثم يقع فى الماء
فيخرجه السباح، وفى مرة أخرى كان المتوكل يجلسه على زلافة فينحدر فيها حتى يقع فى
بركة ثم يأمر رجاله فيطرحوا الشبكة فيخرجوه.

وفى ذلك يقول أبو العبر:

| | |
|-----------------|------------------|
| ويأمر بى الملك | فيطرحنى فى البرك |
| ويصطادنى بالشبك | كأنى من السمك |
| ويضحك كك كك | كك كك كك |

وامتدت حماقات أبى العبر إلى بغداد فحبسه إسحاق بن إبراهيم المصعبى، وبينما هو فى
محبسه صاح فى الحرس: لى نصيحة، فأخرجوه إلى إسحاق فقال: هات نصيحتك، فقال:
على أن تؤمننى، قال إسحاق: قد أمنتك، قال أبو العبر: الكشكية أصلحك الله لا تطيب إلا
بالكشك، فضحك إسحاق وقال: هو والله مجنون، فقال أبو العبر: لاهو امتخط حوتاً،
فقال: ماتقصد بقولك امتخط حوتاً؟ فقال أبو العبر: زعمت أنى مجبت نوناً وما فعلت إلا
امتخطت حوتاً، فكلمة مجنون قسمها أبو العبر إلى قسمين أولهما مج ويرادفهما امتخط
وثانيهما نون ومرادفها حوت.

ففهم إسحاق ما قاله وتبسم وقال: أظن أنى فيك مأثوم، فقال: لا ولكنك فى ماء بصل،

فقال إسحاق: أخرجوه عنى إلى لعنة الله ولا يقيم ببغداد ولا يوماً واحداً فأرده إلى الحبس فعاد أبو العبر إلى سر من رأى.

ويبدو أن حماقته وفحشه كانا سببا في ضياع أغلب شعره، فلم يورد له الأصفهاني في كتابه «الأغاني» إلا بضع مقطعات صغيرة ولم تزد على ذلك المراجع العربية القديمة الأخرى، فلم أعثر له في الغزل إلا على مقطعة صغيرة خالية من الحمق والسخف والخروج الذى اشتهر به، ويبدو أن قاله قبل أن يغير منهجه في الحياة وفي الشعر، وهى بوجودتها تشير إلى شاعر غزل متمكن ذى حس مرهف وقلب نابض بالهوى، يقول فيها:

| | |
|---------------------------|-------------------|
| دأء دنين وهوى بادی | أظلم فجازيك برصا |
| يا واحد الأمة فى حسنه | أشمت بى صدك حسا |
| قد كدت مما نالنى فى الهوى | أخفى على أعين عوا |
| عبدك تحى نفسه قبله | يجعلها خاتمة الزا |

إن نظرة لهذه الأبيات تجعلنى أشك فى أن قائلها اختار بمحض إرادته العدول عن هذا الشعر ليقول ما قاله من أبيات حمقاء سخيفة، ولست مع من تعللوا له بالرغبة فى الشراء الذى لم يحققه غيره من الشعراء الجادين المجيدين، فقد كان أبو العبر ذا قرابة من الخليفة وهذا وحده كفيل بأن يغنيه أمير المؤمنين كما أغنى غيره من أقربائه، فضلاً عن عامة المسلمين.

ولكننى أرجح أن لوثة قد أصابت عقله فتحول هذا التحول الغريب، وهذا ليس غريباً على الشعراء فهم لركة إحساسهم من ناحية ولعبقريتهم من ناحية أخرى، أقرب الناس إلى الإصابة بالجنون، وتاريخ الأدب العربى ملئ بالشعراء المجانين أو المجانين الشعراء كقيس

بن الملووح صاحب ليلى الذى لم يشتهر باسمه وإنما اشتهر بصفة الجنون.

ولأبى العبر أبيات فى الفخر تدل على أن قائلها صاحب نفس أبية عزيزة يصعب عليها أن تتحول بهذا الشكل، طلباً للمال، يقول:

| | |
|----------------------|---------------------|
| وإذا ما الدهر ضعضعنى | لم تجدنى كافر النعم |
| قنعت نفسى بما رزقت | وتناهت فى العلامى |
| ليس لى مال سوى كرمى | وبه أمنى من العدم |

مقتله

ويبدو أن جنونه لم يبد فى شعره وفى سلوكه فحسب وإنما بدا أيضاً فى موقفه المذهبى، فقد كان شديد البغض لعلى بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وله فى العلويين هجاء قبيح، ويبدو أن المراجع لم تورد هذا الهجاء تكريماً لعلى وهو فى الأمة من هو، وكان أبو العبر قد خرج إلى الكوفة ليرمى بالبندق مع الرماة من أهلها فى الأشجار والكوفة موطن شيعة على فقال فيه أبو العبر شعراً قبيحاً سمعه أحد الكوفيين فاستحل دمه وقتله وأغرقه.

شعراء قتلهم شعرهم

السَّيِّئُ بْنُ السَّيِّئَةِ

كَانَ مِنَ الصَّعَالِيكِ
وَاسْتَجَارَ بِقَوْمٍ وَهَجَاهُمْ فَقَتَلُوهُ

هو السليك بن عمرو من بنى مقاعس، أما السلكة فهي أمه وكانت أمه سوداء.

كان السليك من صعاليك العرب وهي طائفة من الشعراء ضمت الشنفرى وتأبط شراً وعمرو بن براق ونفيل بن براق وغيرهم، وكانوا يعيشون حياة مختلفة عن حياة العرب، فهم على فقرهم يتميزون بالأنفة والإباء والترفع عن الصغائر والدنيا وحقير الأعمال، بل يعتمدون في حياتهم على القوة والبطش وانتهاز الفرص وخفة الحركة وسرعة العدو والهجوم الخاطف والسلب والنهب والبطش بالأعداء مع الحرص على البر بالضعفاء والمحتاجين.

وكثرت أشعاهم التي تلعن الصعلوك الفقير الذي يرضى بالاستكانة والمهانة ويألف الكسل والخمول، ويكتفى في طعامه بأن يبحث في المهملات عن بقايا اللحوم الملقاة، وإذا جاد عليه صديق بأكلة، عد نفسه من الأغنياء، بينما تجدد هذه الأشعار الصعلوك الأبي الذي لا ينال الفقر من قوة شخصيته ومهابته التي يحسب لها الأعداء ألف حساب مهما كانوا منه قريين أو بعيدين، فهو يملأ النفوس رهبة وفزعاً، فإذا عاش، عاش كريماً، وإذا مات مات حميداً.

وكان السليك من أشد رجال العرب وأشعرهم، وكانت العرب تسميه سليك المقانِب حيث كان أعلمهم بمسالك الصحراء ودروبها وأشدّهم عدواً على رجله فكانت الخيل لا تدركه.

وكان يعتمد على قوته فيغير وحده على قبائل فينهبها وربما رافقه في غارته صعلوك أو اثنان، وكان للسليك دعاء مشهور يقول فيه: اللهم إنك تهىء ماشئت لما شئت إذا شئت، اللهم إني ولو كنت ضعيفاً، كنت عبداً، ولو كنت امرأة، كنت أمة، اللهم إني أعود بك من

الحية، فأما الهيبة فلا هيبة.

اشتد الفقر على السليك فخرج ليلاً على رجله عسى أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه فيأخذ إبله، ولما طال انتظاره وضع رأسه على عضده ونام في الخلاء، فجاء رجل ونام إلى جواره، فقال له السليك: من أنت؟ فقال: أنا رجل افتقرت فقلت لأخرجن فلا أرجع إلى أهلي حتى استغنى، قال السليك: انطلق معي إذن، فانطلقا معاً فوجدوا رجلاً له مثل فقرهما فانطلقا الثلاثة يبحثون عن ينهبونهم حتى بلغوا وادياً فيه إبل كثيرة، فقال السليك لصاحبه: كونا قريباً مني حتى أعلم لكما علم الحى أقرب أم بعيد، فإن كانوا قريباً رجعت إليكما، وإن كانوا بعيداً قلت لكما قولاً أو أومىء إليكما به، فأغيرا.

وانطلق حتى أتى الرعاء وأخذ يستدرجهم في القول حتى أخبروه بمكان الحى وعرف أنهم بعيد، فقال للرعاء: ألا أغنيكم؟ فقالوا: بلى، غننا فرفع صوته وغنى:

ياصاحبى ألا لآحى بالبوادى سوى عبيد وأم بين أذواد

اتنظران قريباً ريث غفلتهم أم تغدوان فإن الريح للغادى

فلما سمع صاحبه ذلك أتياه وأخذوا الإبل وذهبوا بها ولم يبلغ صياح العبيد الحى حتى كان السليك وصاحبه في مأمنهم.

والقصص التى تصور شدة السليك وسرعته فى العدو كثيرة وقد رآه طلائع جيش بكر بن وائل وكانوا يقصدون قومه فقالوا: إن علم السليك بنا أنذرهم، فبعثوا إليه فارسين على جوادين، فلما طاردها ظل يجرى على رجله كأنه ظبى، وأمضيا النهار كله وراءه، ثم قالوا: إذا كان الليل أعيأ ثم سقط أو قصر عن العدو فتأخذه، فلما أصبح الصباح تبعاه فوجدا أثره

متباعدة فعلمنا أنه ما يزال قويا، وخافا على نفسيهما الضياع في الصحراء، فقالا: والله لا نتبعه أبداً وانصرفا عنه، ووصل السليك إلى قومه فأنذرهم، فكذبوه لبعد الغاية، فأنشأ يقول:

يكذبني العمران، صمرو بن جندب وعمر بن سعد والمكذب أكذب
نكلتكما إن لم أكن قد رأيتها كراديس يهديها إلى الحى موكب
كراديس فيها الخوفزان وقومه فوارس همام متى يدع يركبوا

وجاء الجيش فأغاروا على القوم فعلموا أن السليك كان صادقاً.

وكان السليك إذا شرب الماء ثقل وقلت سرعته، وقد أغار على قوم من بنى مالك، فلم يظفر منهم بفائدة وأرادوا الإمساك به، فقال شيخ منهم: إنه إذا عدا لم يتعلق به شيء فدعوه حتى يرد الماء فإذا شرب وثقل لم يستطع العدو وظفرت به.

فأمهلوه حتى ورد الماء، فشرّب ثم بادروه، فلما علم أنه مأخوذ خاتلهم، وقصد أقرب بيوتهم حتى دخل على امرأة منهم تسمى «فكيهة» فاستجار بها، فمنعته وجعلته تحت درعها واستلت السيف وقامت دونه فكثرت عليها القوم فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بإخوتها فجأؤها ودفعوا عنه حتى لحا من القتل، فقال في ذلك:

لعمري أبيك والأنباء تنمى لنعم الجار أخت بنى عوارا
من الخفرات لم تفضح أبها ولم ترفع لإخوتها شنارا
وماعجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

كان السليك يعطى رجلاً من خثعم يسمى عبد الملك بن مويلك إتاوة من غنائمه على أن يجيره، فیتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم.

وقد لقي سليك رجلاً من خثعم يقال له مالك بن عمير خارج أرضه ومعه امرأته وتسمى النوار، فأسرهما السليك فقال له الرجل: أنا أفدى نفسي منك، فقال السليك: على ألا تخيس بي ولا تطلع عليّ أحداً من خثعم، فحالفه على ذلك وترك امرأته رهينة عنده ورجع إلى قومه، فأصاب السليك النوار فأحبته وجعلت تقول له إحذر خثعم فإنني أخافهم عليك، فقال:

تهددني كي أحذر العام خثعما وقد علمت أني أمرؤ غير مسلم
وما خثعم إلا لثام أرقّة إلى اللذ والإسخاف تنمي وتنمي
فبلغ ذلك الشعر رجلين من خثعم هما شبل بن قلادة وأنس بن مدرك، فقالا: أيقول ذلك فينا ونحن مجيروه؟

فلم يشعر السليك إلا وقد أدركاه في الخيل والسلاح والرجال فأنشأ يقول:
من مبلغ حرباً أني مقتول يارب نهب قد حوت عثكول
ورب قرن قد تركت مجدول ورب زوج قد نكحت عطبول
وررب عان قد فككت مكبول ورب واد قد قطعت مشبول
فقال أنس لشبل: إن شئت كفيتك أصحابه واكفني السليك، وإن شئت اكفني أصحابه أكفك السليك.

فقال شبل: بل أكفيك أصحابه.
فشد شبل وأصحابه على أصحاب سليك فقتلوه، وشد أنس مع رجاله على السليك فقتلوه.

شعراء قتلهم شعرهم

الكميت

ولد الكميت بن زيد أيام مقتل الحسين بن على - رضى الله عنهما - فوضع صغيراً من صدر الفجيجة الكبرى وتنفس من زفرات الملكومين فيها وأرقت مهده الصغير أنات الشكالى من شيعة الحسين بل ومن شيعة بنى هاشم.

طبع الكميت على حب بنى هاشم والتشيع لهم، وهو كشاعر كان عليه أن يعبر عن ذلك الحب ويصوره بأسلوبه، لكن أن تحب هاشمياً فى عصر ثقلت عليه يد بنى أمية فهذا جهاد، وأن تجهر بهذا الحب فجهاد أعظم، وأن تجهر به شعراً - مع ما للشعر من قوة فى التأثير على النفوس وسرعة فى الانتشار - فهذا هو الجهاد الأعظم.

ومن خلال ثقافة الكميت كفقيه ومعلم للصبيان، ومن جهة أخرى كرجل متشيع لبنى هاشم، وعلى مذهب الزيدية - وهم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على وهم أكثر فرق الشيعة اعتدالاً فى تشيعهم لعلى وآل بيته - ومن خلال صلته الوثيقة بالفكر المعتزلى عن طريق صاحبه زيد بن على، وواصل بن عطاء رأس المعتزلة، من خلال ذلك كله استطاع الكميت أن يكون لنفسه رؤيته الخاصة للأحداث قديمها وحديثها، وأن يكون رأياً حراً لا تؤثر عليه المؤثرات الحكومية «الأموية» استطاع الكميت أن يمهّد للشعر أرضاً جديدة تحت سماء التشيع، كما استطاع أن يمهّد للشيعة أرضاً جديدة تحت سماء الشعر، يمكنهم فى ظله أن يظهرُوا محبتهم لآل البيت، ويحتجوا لحق أئمتهم فى الخلافة، ويبرزوا الجوانب الدينية والإنسانية فى شخصية الأئمة، بل يمكنهم من خلاله أن يظهرُوا حزنهم ونفجعتهم على الشهداء من أئمتهم، على الرغم من أن ذلك كان محظوراً وإن لم يكن حظره معلناً.

ولقد سار على درب الكميت شعراء عرفوا بحبهم لآل البيت وخصوهم الولاء وأكثرُوا القول فيهم، منهم كثير عزة، والسيد الحميرى، وأمين بن خزيم، وأبو الأسود الدؤلى، وهم قلة غير أن واحد هم كثير على الدولة الأموية وكفيل شطر بيت لأقلهم شهرة أن يغرس

الشوك في مضجع أعتى خلفاء بنى أمية فلا يدرك النوم حتى يفتك بقائله.

كتب الكميت مجموعة من القصائد يمدح فيها بنى هاشم، ويهجو بنى أمية ويوازن بين عدل الأئمة وجور الخلفاء الأمويين، وعرفت هذه المجموعة من القصائد باسم «الهاشميات»، منها قوله:

| | |
|---|--|
| نفى عن عينك الأرق الهجوعا | وهم يمتري ^(١) منها الدموعا |
| لفقدان الخضارم ^(٢) من قريش | وخير الشافعين معاً شفيما |
| لدى الرحمن يصدع بالمثاني ^(٣) | وكان له أبو حسن قريما |
| حطوطاً ^(٤) من مسيرته ومولى | إلى مرضاة خالقه سريما |
| وأصفاه النبي على اختبار | بما أعيى الرغوض له المديما |
| ويوم الدوح ^(٥) دوح غدیرخم ^(٦) | أبان له الولاية أو أطيما |
| ولكن الرجال تبايموها | فلم أر مثلاً خطراً مبيميا |
| فلم أبلغ بها لعنا ولكن | أساء بذاك أولهم صنيما |
| فصار بذاك أقربهم لعدل | إلى جور وأحفظهم مضيما |
| أضاعوا أمر قائدهم فضلو | وأقومهم لدى الحدثن ^(٧) ريما |

(١) يمتري: يحلب

(٢) الخضارم: القرآن الكريم، والمراد يشق عصا الكفر بالقرآن

(٣) المثاني: القرآن الكريم، والمراد يشق عصا الكفر بالقرآن

(٤) الحطوط: السريع

(٥) الدوح: الشجر، مفردا دوحه

(٦) غدیرخم: موضع بين مكة والمدينة

(٧) الحدثن: الحادثة

تناسوا حقه وبغوا عليه بلائرة وكان لهم قريعاً

من خلال هذه الأبيات تلمح الكميت وقد استبد به الأرق والهم الذي قرح جفنيه من كثرة بكائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده من آل البيت الكريم، ثم بعد ذلك يأخذ في الاحتجاج لحق على كرم الله وجهه في الخلافة، ويؤيد ذلك الحق بعرض خصال الإمام على فيصفه بأنه يسارع إلى إرضاء خالقه عز وجل، ثم يحتج بأن الرسول أوصى بخلافة على في يوم عُرف بيوم غدیر خم، ثم يعيب على الصحابة موقفهم حين سلبوا علياً حقه في الولاية وتركوا أمر الرسول فصاروا مضيعين للحق^(١).

وفي موضع آخر من الهاشميات يقول الكميت:

| | |
|-------------------------------|---|
| أرضى بشتى أبى بكر ولا عمراً | أهوى علياً أمير المؤمنين ولا |
| بنت الرسول ولا ميراثه كفراً | ولا أقول وإن لم يعطياً فدكاً ^(٢) |
| يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا | الله يعلم ماذا يأتیان به |
| إن الولي على غير ما هجرا | إن الرسول رر رسول الله قال لنا |
| لم يعطه قبله من خلقه بشراً | في موقف أوقف الله النبی به |
| لا كاللذين استذلنا بما أئتمرا | هو الإمام إمام الحق نعرفه |

يتكلم الكميت بحنجره الشيعة الزيدية، ويحس بأحاسيسهم وينبض قلبهم جميعاً بحب آل البيت عامة وحب على خاصة، وهو في هذه المقطعة يصرح بهذا الحب، ولكنه مع حبه

(١) نلفت نظر القارئ إلى أننا نشرح وجهة نظر الكميت ولاتنبأها

(٢) فدك. قرية بالحجاز

الشديد لعلى يرفض أن يتناول أميرى المؤمنين أبا بكر وعمر بالسب أو اللعن، فهو يعتقد بجواز إمامتهما - كما يقرر ذلك مذهب الشيعة الزيدية - مع وجود من يفضلهما وهو الإمام على كرم الله وجهه.

يشير الكميت إلى القرية التى أفاء الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم قرية فذك - التى طالبت بها ابنته السيدة فاطمة بعد وفاته، فأبى أبو بكر عطاءها إياها وكذلك فعل من تبعه من الخلفاء، فالكميت يرى أنه على الرغم من ذلك لا يصح رميهم بالكفر ويفوض الأمر فيهم إلى الله تعالى، ثم يؤكد الكميت على إمامة على ويحتج له بأن الرسول أوصى له بذلك صراحة.

وفى هاشمية أخرى يقول الكميت

| | |
|--|--|
| طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب | ولا لعباً منى وذو الشيب يلعبُ |
| ولم يلهنى دار ولا رسم ^(١) منزل | ولم يتطربنى بنان مخضب |
| ولا السانحات ^(٢) البارحات عشية | أمرّ سليم القرن أم مرأعضب ^(٣) |
| ولكن إلى أهل الفضائل والنهى | وخير بنى حواء والخير يطلب |
| إلى الثفر البيض ^(٤) الذين بحبهم | إلى الله فيما نابنى أتقرب |
| بنى هاشم رهط النبى فإننسى | بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب |

(١) رسم: الأثر اللاصق بالأرض من أطلال المنازل

(٢) السانحات: ما يمر من الطير ناحية اليمن، وكانت العرب تتفاءل به، والبارحات: ما يمر إلى اليسار وكانت العرب تتشاءم منه

(٣) الأعضب: المكسور القرن

(٤) البيض: جمع أبيض وهو الشريف الحر

خفضت لهم منى جناحى مودة
وكننت لهم من هؤلاء وهؤلاء
وأرمى وأرمى بالمعداة أهلهما
ومالى إلا آل أحمد شيعه
بخاتمكم غصبا تجوز أموركم
وجدنا لكم فى آل حاميم^(٢) آية
وفى غيرها آيا وآيا تتابعتم
بحقكم أمست قريش تقودنا
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا
يرون لهم فضلاً على الناس واجباً
ولكن مواريث بن آمنه الذى
يقولون لم يورث ولولا ترائه
وعك ولختم والسكون وحمير
وماكنت الأنصار فيها أذلة
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
محباً على أنى أذم وأقصب^(١)
وإنى لأوذى فيهم وأؤنب
ومالى إلا مذهب الحق مذهب
فلم أر غصباً مثله يتغصب
تأولها منا تقى ومعرب
لكم نصب فيها لذى الشك منصب
وبالف^(٣) منها والرديفين^(٤) نركب
وماورثتهم ذاك أم ولا أب
سفاهاً وحق الهاشميين أوجب
به دان شرقى لكم ومغرب
لقد شركت فيه بكيل وأرحب^(٥)
وكندة والحيان: بكر وتغلب
ولاغيباً عنها إذا الناس غيب

(١) أقصب: أعاب وأشتم

(٢) آل حاميم: السور القرآنية المبدوءة بـ «حم» وهى غافر، فصلت، شورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف

(٣) الفل: الفرد

(٤) الرديف: هو الذى يركب خلف الراكب

(٥) بكيل وأرحب والبيت التالى كله: أسماء قبائل عربية

همُ شهدوا بدرأ وخير بعدهما
ويوم حنين والدماء تصيب
وهم رثموها غير ظنر وأشبوا
عليها بأطراف القنا وتحذبوا
فإن هي لم تصلح لقوم سواهم
فإن ذوى القربى أحق وأقرب

كأصحاب القضايا والمهتمين بالمشكلات العليا لم يكن الكميت يطرب أو يشناق كما يشناق أترابه لجارية بيضاء يلاعبها وتلاعبه، ولم يكن كذلك من الشعراء الذين يرون من الرسوم الدارسة موضوعات تدور حولها حياتهم وبالتالي قصائدهم، ولم يكن كذلك من الشباب اللاهى العاثر الذى لا يجد ما يضيع وقته فيه سوى استطلاع الغيب عن طريق العادات الجاهلية الذميمة مثل زجر الطير، ولكنه - وهو الرجل المحب لآل البيت فى دولة عدوهم - لم يكن له هم سوى إرضائهم وتبنى الدفاع عن حقهم المغتصب فى الخلافة، فهم أهل الفضائل والعقول الراجحة، وهم خير الأبناء لخير الأمهات وهى السيدة «فاطمة الزهراء» رضى الله عنها وأرضاها، وهذه براعة استهلال محمد عليها قريحته الشعرية، فهو يشد السامع من أول القصيدة ويجذبه من خلال تجديد لم تعهده القصيدة العربية التى عرف عمودها بالبدء بالوقوف على الأطلال، ثم ذكر الحبيبة النائية، ووصفها بما تيسر من صفات الشرف والرفعة ولا بأس من التعرض لمفاتها فى بيت أو بيتين، ثم وصف الخيل أو الناقة ثم الخلاص من ذلك كله إلى الغرض الأساسى فى القصيدة من مدح أو فخر أو غزل أو رثاء أو هجاء ثم فى ختام القصيدة تكون هناك حكمة أو مجموعة من الحكم يطلقها الشاعر.

الكميت إذن سبق العصر العباسى إلى كسر عمود القصيدة العربية، ألم يطلع علينا بقصائد مختلفة تماما فى بنائها عن المعتاد فى ذلك العصر؟! ولقد كان شعره بما يحويه من إرهافات التجديد موضع إعجاب من كبار شعراء عصره، فهاهو الفرزدق يستمع إليه بإنصات شديد وهو يقول:

طربت وماشوقاً إلى البيت أطربُ

فقال له الفرزدق: فيم نطرب يا ابن أخي؟ فقال:

ولالعباً منى وذو الشوق يلعبُ

قال الفرزدق: بلى يا ابن أخي، فالعب فإنك في أوان اللعب، فقال:

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ولم يتطربنى بنان مسخضب

فقال الفرزدق: ما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

فقال الفرزدق: أجل لا تتطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بنى حواء والخير يطلب

فقال الفرزدق: ومن هؤلاء؟ ويحك، فقال:

إلى التفّر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالنى أنقرب

قال الفرزدق: أرحنى، ويحك، من هؤلاء؟ فقال:

بنى هاشم رهط النبى فإبنى بهم ولهم أرضى مراراً وأعضب

فقال له الفرزدق: يا ابن أخي، أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى.

لم يكن الفرزدق لينصت ذلك الإنصات ويتلهف على الاستماع ذلك التلهف لشاعر صبى يلقي عليه أولى محاولاته، إلا إذا أدرك الفرزدق أن هناك شيئاً جديداً لم يسمعه من

غيره من الشعراء، ولم يكن ليطلق عليه «أشعر من مضى وأشعر من بقى» على سبيل المجاملة أو التشجيع، فلم تكن الساحة الأدبية وقتئذٍ تعرف تلك المجاملات البلهاء التي نراها اليوم على ألسنة المتناقدين موجهة للمتشاعرين، ولم يكن الفرزدق ليقول ذلك إلا تقديرًا منه - وهو رجل ذو تاريخ شعري طويل وحساسية نقدية نفاذة - لما يقول الكميت من شعر لم تسمع العرب مثله.

بعد هذه المقدمة يتعرض الكميت للأمويين مغتصبى الخلافة من الهاشمين أصحاب الحق فيها، ويقرر أنه اغتصاب لم يُر مثله فى تاريخ البشرية فقد أصبح الأمويون يجوزون أمورهم بخاتم الخلافة، وهو خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، وبنو هاشم أحق به منهم، وقد عبر الكميت عن الأمويين بضمير الغائبين «هم» ولم يصرح باسم أحد منهم، وليس هذا جبنًا منه أو احتباسًا أو وسيلة للهروب من المسألة، فالقصيدة كلها صفة على وجه الأمويين، وإنما استخدام الضمير هنا جاء للتعميم، فكأنما المقصود بالذم ليس الأمويين وحدهم وإنما كل من يمكن أن يكون فى مكانهم من اغتصاب الخلافة، بمعنى أى «هم» أو أى قوم كانوا، وبذلك يخرج الكميت نفسه من دائرة العداة الشخصى لبنى أمية، فهو لا يقصدهم كقوم وإنما يقصدهم لموضعهم الذى وضعوا أنفسهم فيه من اغتصاب الخلافة، وكأن القضية قد أصبحت عند الكميت ذات طرفين، طرفها الأول بنو هاشم وطرفها الثانى «هم».

ثم يلجأ الكميت إل كتاب الله عز وجل آوياً إلى ركنه الشديد علّه يجد فى آياته ما يؤازره ويدعمه، فىرى فى بعض سوره بعض آيات تثبت حق أهل البيت فى الخلافة، منها قوله تعالى فى سورة الشورى «ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل للأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور

شكور»^(١)، ثم يتهم بنى أمية بأن لهم غاية فى تأويلها على غير وجهها، ولكن هذا التأويل سوف يتعبهم الوصول إليه.

ثم يأسى الكميت لهذه الحالة التى وصلت إليها الدولة الإسلامية، فقد أصبح الأمويون يرثون الخلافة عن آبائهم، فى الوقت الذى رفضوا وراثتها لبنى هاشم من النبى واحتجوا بأن الأنبياء لا يورثون، ويقرر الكميت حجتهم هذه بأن النبى لو لم يكن النبى يورث لكانت الخلافة حقاً عاماً لجميع المسلمين وليست قاصرة على قريش فضلاً عن بنى أمية، بل كان للأنصار الحظ الأكبر فيها، فهم الذين آووا ونصروا نبى الأمة، بعد أن تخلت عنه بل وحاربتة قريش، وقد شهد الأنصار غزوة بدر وخيبر وحنين ودفعوا دماءهم لنصرة الإسلام، وقد قبلوا الإسلام ورعوه رعاية الأم لأولادها الصغار.

ثم يخلص الكميت إلى أن الخلافة تورث، بدليل وراثة بنى أمية لها عن طريق آبائهم، ثم يرى أنها من حق آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فهم أقرب الأقربين له وأحق الناس بوراثته، وينتج حتماً عن ذلك أن بنى أمية مغتصبوا هذه الخلافة وليس لهم حق فيها.

وفى إحدى الهاشميات يقول الكميت:

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| بل هوأى الذى أجن وأبدى | لبنى هاشم فروع الأنام |
| للقرىين من ندى والبعيد | من من الجور فى عرى الأحكام |
| والمصيين باب ماأخطأ النسا | س ومرسى قواعد الإسلام |

(١) سورة الشورى آية ٢٣

والغيوث الذين إن أمحل ^(١) الننا
 س فمأوى حواضن الأيتام
 راجحى الوزن كاملى العدل فى السير
 ة طبين ^(٢) بالأمور العظام
 غالبين هاشميين فى العمد
 سم ربّوا ^(٣) من عطية الملام
 وهم الآخذون من ثقة الأمم
 رر بتقواهم عرّى لا انفصام
 س سواءً أو رعية الأنعام
 لا كمبد المليك أو كوليد
 أو سليمان بعد أو كهشام
 رأيه فيهم كراى ذوى التلة ^(٤) فى الشائج ^(٥) جنح الظلام
 جز ذى الصوف وانتقاء لذى الد
 مخة ^(٦) لغفا ودعدعا ^(٧) بالبهام ^(٨)
 وهم الأوفون بالناس فى الرأ
 فة والأحلمون فى الأحلام
 أخذوا القصد واستقاموا عليه
 حين مالت زوامل ^(٩) الآثام
 والوصى ^(١٠) الذى أمال
 به عرش أمة لا انهدام
 قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه
 حكماً لا كغابر الحكام
 الإمام الزكى والفارس الممد
 لم تحت المعجاج غير الكهام
 راعيا كان مسجحا فقدنا
 ه وفقد المسيم ^(١١) هلك السوام

(١) أمحل الناس: أصابهم الجذب (٢) طبين: حاذقين (٣) ربوا: زادوا (٤) التلة: جماعة الغنم
 (٥) الشائج: جمع ثائجة وهى الصائحة من الضأن (٦) ذو المخة: السمين (٧) دعدعا: صوت تنادى به الغنم
 (٨) البهام: أولاد الضأن والمفرز (٩) الزوامل: جمع زاملة وهى الناقة التى يُحمل عليها المتاع
 (١٠) الوصى: يريد علياً بن أبى طالب (١١) المسيم: الراعى الذى يضع علامة على المشاة

الكميت فى هذه القصيدة يحاول أن يلفت النظر إلى الجانب الإنسانى للهاشميين بعد أن أصبح كمالهم الدينى أمراً مفروغاً منه، أليسوا آل بيت النبى وهم أهل التقوى والورع، الكميّ إذن يريد الوصول ببنى هاشم إلى درجة الكمال الإنسانى أو المثالية الإنسانية، ديناً وخلقاً، فيصفهم بالكرم، فهم كمطر السماء الذى ينقل من أشرفوا على الهلاك وقد أصابهم الجذب، فيكونون ملاذاً للأمهات وقد حملن أيتامهن ولمن لاعائل لهم من العجزة والمحتاجين، فيجدون عندهم الخير الكثير.

ثم يصفهم الكميّ بالعدل فى الفصل بين الناس، وبأنهم حاذقون فى مواجهة المشكلات، ويعرفون لكل أمر خطره، ولكل نازلة المنجاة منها، فهم أهل رجاحة العقل والفتنة.

ثم يصفهم بالعلم الربانى المتزايد، وهذا اعتقاد الشيعة فى أن العلم يوهب تماماً كما توهب النبوة، وليس أولى بهذا العلم والفقہ من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الوحي.

ثم يقارن الكميّ بين سياسة الهاشميين وسياسة بنى أمية، وفى هذه المقارنة يقرر الكميّ عدل الهاشميين، «بنفى الجور والظلم عنهم، بينما يصم بنى أمية بأنهم يملكون ويدخرون، وكأن الرعية غنم لهم، يجزون صوفها ويشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، وفى الوقت نفسه لا يرحمون حتى صغارها من قهرهم، وزجرهم، فهم الظلمة الغاشمون، أما بنو هاشم فهم يبتغون الرحمة والعدل بين الناس، وقد استقاموا على جادة الدين، بينما حاد بنو أمية عنه، وهم مثقلون بالآثام»^(١).

(١) اتجاهات الشعر فى العصر الأموى لأستاذنا الدكتور صلاح الدين الهادى ص ١١٧

«ولا ينسى الكميت أن يرثى برثائه الشجاعة، والطهر، ونبع الخير، وأن يندد بأعدائه، الذين أعانوا على قتله، بتدبير مؤامرة اغتياله فيرميهم بالجرأة على الدين، لأن في قتل الإمام على هدم لعرش الأمة الإسلامية، ويصممهم بالظلم لفتكهم بالراعى العادل، الذى تهلك بهلاكه الرعية»^(١).

بعد هذه الوقفة السريعة مع بعض هاشميات الكميت، يبقى سؤال هام، هل كان الكميت شاعراً سياسياً أم كان شاعراً دينياً؟

وبتعبير آخر، هل كانت الهاشميات شعراً سياسياً أم شعراً دينياً؟ ربما أجمع بعض النقاد ودارسى أدب ذلك العصر على أنه شعر سياسى، لمطالبة هؤلاء الشعراء بالخلافة لشيعتهم وهى منصب سياسى، لكننا نرى أن ننظر أولاً إلى دوافع المطالبة، أهى سياسية أم دينية؟

بمعنى هل كان الكميت ينتمى للحزب الشيعى ويناصره لأنه حزب من أقوى الأحزاب الموجودة، وربما آل إليه الحكم فى وقت ما، فيكون الكميت مسارعاً إلى النصرة والمؤازرة، ويكون له بذلك قدره فى الدولة الجديدة إن قامت؟

لو كان الأمر كذلك فلماذا لم يلجأ الكميت إلى بنى أمية فيمدحهم، ويؤازرهم ويزود عنهم أعداءهم، وهم أصحاب السلطة الحاكمة الموجودة بالقوة والفعل؟

يجيب الكميت نفسه على هذا السؤال حينما قدم له أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ألف دينار وكسوة جائزة على أشعاره فى آل البيت، فقال الكيمت: « والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه (يعنى بنى أمية أصحاب السلطان والمال)، ولكننى

(١) السابق نفسه ص ١٠٨

أحببتكم للآخرة، وأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها، وأما المال فلا أقبله،
فرده، وقبل الثياب»^(١).

وقوله أيضاً لعبد الله بن الحسن بن على، وقد أجازته على شعره فى آل البيت بضبيعة
قيمتها أربعة آلاف دينار، وسلمه صكها: «بأبى أنت وأمى، إنى كنت أقول الشعر فى غيركم
أريد بذلك المال والدنيا، ولا والله ماقلت فيكم إلا لله، وماكنت لأخذ على شىء جعلته لله
مالاً ولا ثمناً»^(٢).

القضية إذن قضية دين، وليست سياسة، فالخلافة خلافة النبى صلى الله عليه وسلم، وهو
صاحب لواء الدين، وليست خلافة ملك أو سلطان، تؤول إلى من يحسن الوصول إليها عن
أى طريق، أياً كانت هويته.

كذلك لم يكن فصل الدين عن الدولة أمراً وارداً فى ذلك الحين، وإنما ذلك الفصل من
مبتدعات عصرنا الحالى، وكان الواجب على النقاد أن يضعوا المصطلحات بدقة، فإن لم
تيسر لهم تلك الدقة، فليسموا القضايا بأسمائها القديمة، ولا حرج فى ذلك.

شعر الكميت إذن شعر دينى، وإذا كان منهجه يشبه منهج الشعر السياسى الذى ظهر فى
العصور التالية له، فتشابه المناهج لا يعنى اتفاق الهوية.

هو شعر دينى جعل السياسة وسيلة من وسائل الأداء، ونسبة الأمور إلى غاياتها لاشك
أفضل من نسبتها إلى وسائلها.

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٩٢ ط. دار الشعب

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٥ نقلاً عن اتجاهات الشعر فى العصر الأموى للدكتور صلاح الدين الهادى ص

قُدر للهاشميات أن تكتب، وقدر لها أن تصل إلى قصر بنى أمية، ولكن كيف وصلت؟
 مما لاشك فيه أن الكميت كان حريصاً على ألا تصل هذه القصائد إلى القصر، فهي لم
 تكتب للقصر، وإنما كتبت للعامة الذين أغرقهم بنو أمية في الظلم والجور.
 في وصول الهاشميات إلى قصر بنى أمية رواية يرويها أبو الفرج الأصفهاني، في كتابه
 الأغاني، رأينا أن نورد هنا بنصها^(١):

ان حكيم بن عياش الأعور الكلبى^(٢) ولعاً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تهجوه
 ويجيبهم، وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم، قالوا: فأجب الرجل، قال: إن خالد
 بن عبد الله القسرى^(٣) محسن إلى فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع بأذنك ما يقول في
 بنات عمك وبنات خالك، وأنشدوه ذلك، فحمى الكميت لعشيرته، فقال قصيدته المذهبة
 (ألا حييت عنا يامدينا) فأفحش فيها، وبلغ خالدأ خبرها، فقال: لا أبالي، ما لم يجر لعشيرتى
 ذكر، فأنشدوه قوله:

| | |
|--------------------------|--------------------------------------|
| ومن عجب على عمر أم | غذتك وغيرها تبأ يمينا ^(٤) |
| تجاوزت المياه بلا دليل | ولا علم تعمسف مخطئينا |
| فإنك والتحول من معد | كهيلة قبلنا والخابينا |
| تخطت خيرهم حلباً ومسا | إلى المولى المغادر هاريينا |
| كعنز السوء تنطح عالفياها | وترضيها عصى الدابحينا |

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٧٤

(٢) كان شاعراً منقطعاً إلى بنى أمية في دمشق

(٣) خالد بن عبد الله القسرى: كان أميراً على العراق

(٤) في البيت تعريض بأم خالد، وكانت نصرانية

فبلغ ذلك خالدًا، فقال: فعلها والله، لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين جارية بأعلى ثمن، وتخيرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب، فروأهن الهاشميات، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعاً، فلما أنس بهن استنطقهن، فرأى فصاحة، وأدباً، فاستقرأهن القرآن، فقرأن، واستنشدن الشعر، فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن! من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي، قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق، ثم بالكوفة، فكتب إلى خالد وهو عامله على العراق: ابعث إلى برأس الكميت بن زيد، فبعث خالد إلى الكميت في الليل، فأخذه وأودعه السجن، ولما كان من الغد أقرأ من حضر من مضر كتاب هشام، واعتذر إليهم من قتله، وأذنهم في إنفاذ الأمر فيه في غد، وقال لأبان بن الوليد البجلي وكان صديقاً للكميت: أنظر ماوردني في صديقك، عز على والله به، ثم قام إبان، وكان عاملاً على واسط، فبعث إلى الكميت فأنذره، وكتب إليه: قد بلغني على ماحدث إليه، وهو القتل إلا أن يدنع الله عز وجل، وأرى لك أن تبعث إلى حبي - يعني زوجة الكميت، وهي بنت نكيف بن عبد الواحد، وهي ممن يتشيع أيضاً - فإذا دخلت إليك تنقبت بنقابها ولبست ثيابها وخرجت، فإني أرجو ألا يؤبه لك، فأرسل الكميت إلى أبي وضاح حبيب بن بديل، وإلى فتيان من بني عمه، من مالك بن سعيد، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر، وشاوره فيه، فسد رأيهم، ثم بعث لى حبي، امرأته فقص عليها القصة، وقال لها: أي ابنة عم، إن الوالى لا يقدم عليك ولا يسلمك قومك، ولو خفته عليك لما عرضتك له.

فألْبسته ثيابها وإزارها وخمرته^(١)، وقالت له: أقبل وأدبر، ففعل، فقالت: ما أنكر منك شيئاً إلا يبساً في كتفك فاخرج على اسم الله، وأخرجت معه جارية لها فخرج، وعلى باب

(١) خمرته: ألْبسته الخمار

السجن أبو الوضاح، ومعه فتیان من بنى أسد، فلم يؤبه له، ومشى والفتیان بین یدیه، إلى سكة شبيب بناحية الكناسة، فمر بمجلس من مجالس بن تميم فقال بعضهم: رجل ورب الكعبة، وأمر غلامه فاتبعه، فصاح به أبو الوضاح: يا كذا وكذا لأراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم، وأوماً إليه بنعله فولى العبد مدبراً.

وأدخله أبو الوضاح منزله، ولما طال على السجنان الأمر نادى الكميت فلم يجبه، فدخل ليعرف خبره، فصاحت به المرأة: وراءك لا أم لك! فشبّق ثوبه وخرج صارخاً إلى باب خالد، فأخبره الخبر، فأحضر حبي فقال لها: يا عدوة الله، احتلت على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه، لأمثلن بك، ولأصنعن ولأفعلن، فاجتمعت بنو أسد إليه وقالوا: ماسبيك على امرأة منا خدعت، فخافهم فخلّى سبيلها.

وسقط غراب على حائط قنعب، فقال الكميت لأبى الوضاح: إني لما أخذ، وإن حائطك لساقط، فقال: سبحان الله! هذا ما لا يكون إن شاء الله، فقال له: لا بد من أن تحولنى، فخرج به إلى بنى علقمة، وكانوا يتشيعو، فأقام فيهم، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذى سقط عليه الغراب.

فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به، فقال: إني أخشى ألا ينفعك جوارى هذا، ولكن استجر بابتنه مسلمة بن هشام، فقال: كن أنت السفير بين وبينه، ففعل مسلمة وقال لابن أخيه: قد أتيتك بشرف الدهر واعتقاد الصنيعة لمضر، وأخبره الخبر، فأجاره مسلمة بن هشام. وبلغ ذلك هشاماً فدعا به، ثم قال له: أتجبر على أمير المؤمنين بغير أمره، فقال: كلا لكنى انتظرت سكو غضبه، قال: أحضرني الساعة، فإنه لا جوار لك، فقال مسلمة للكميت: يا أبا المستهل، إن أمير المؤمنين أمرنى بإحضارك، فقال: أتسلمنى يا أبا شاعر، قال: كلا ولكنى

أحتال لك، ثم قال له: إن معاوية بن هشام مات قريباً، وقد جزع عليه جزعاً شديداً، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك، ويقولوا: هذا استجار بقبر أبينا، ونحن أحق من أجاره.

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر، فقال: ما هذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر، فقال: يجار من كان إلا الكميت، فإنه لاجوار له، فقل: إنه الكميت، فقال: يحضر أعنف إحضار، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم به، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر، وهم يقولون: يا أمير المؤمنين، استجار بقبر أبينا وقد مات، ومات حظه من الدنيا، فاجعله هبة لنا، ولاتفضحنا فيمن استجار به، فبكى هشام حتى انتحب.

ثم أقبل على الكميت فقال له: ياكميت، أنت القائل:

وإلا فقولوا غيرها تتعرفوا نواصيها تردى بنا وهي شرب^(١)

لا والله، ولا أتان من أتن الحجاز وحشية، فحمد الكميت الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: أما بعد فإنني كنت أتهدى في غمرة وأعوم في بحر غواية، أخنى على خطلها واستفزني وهلهما، فتحيرت في الضلالة، وتسكت في الجهالة، مهرعاً عن الحق، جائراً عن القصد، أقول الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتان وبالألأ، وهذا مقام العائد مبصر الهدى، ورافض العمى، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة، واصفح عني الذلة واعف عن الجرمة، ثم

(١) شرب: ضوامر

قال:

كم قال قائلكم لعاً^(١) لك عند عشرته لعائر
وغفرتهم لذوى الذنوب ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتى لكل متلمذة وعشيتننى دون العشائر
أنتم معادن للخلافة كابرأ من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين من خلائفاً وبخير عاشر^(٢)
وإلى القيامة لانزرا ل لشافع منك وواتر

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته، فقال: إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ومناط
المنتجعين بحبله، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين،
فقال له: ويلك ياكُميت، من زين لك الغواية ودلاًك في العماية؟ قال: الذى أخرج أبانا من
الجنة، وأنساه العهد فلم يجد له عزماً، فقال: إيه أنت القائل:

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ويحاطباً فى غير حبلك تحطب
فقال: بل أنا القائل:

إلى آل بيت أبى مالك مناخ هو الأرحب الأسهل

(١) لعاً: كلمة يدعى بها للعائر

(٢) التسعة هم معاوية بن أبى سفيان ويزيد الأول ومعاوية الثانى ومروان الأول، وعبد الملك بن مروان، والوليد
الأول، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد الثانى، والعاشر هو هشام بن عبد الملك

تمت بأرحامنا الداخـلا
ببيرة والنضر والمالكـ
وياهني خزيمة بدر السما
وجدنا قريشاً قريش البطاح
على ما بنى الأول الأول
وحيص^(١) من الفتق مارُعبلوا^(٢)
قال له: وأنت القائل:

لا كعبد المليك أو كوليد
من يمت لا يمت فقيداً ومن يحـ
أو سليمان بعد أو كهشام
يى فلا ذو إل^(٣) ولا ذو ذمام
ويلك ياكمت أجعلتنا ممن لا يرقب فى مؤمن إلا ولاذمة، فقال: بل أنا القائل يا أمير
المؤمنين:

فالآن صرت إلى أميـ
والآن صرت بهـ المصـ
يا ابن العقائل للمعا
من عبد شمس والأكا
ة والأمور إلى المصابـ
ب كمهتد بالأس حائر
ئل والجحاحجة الأخايـ
بر من أمية فالأكابر

(١) حيصى: خيط

(٢) رعبلوا: مزقوا

(٣) إل: عهد

بن عمر، وكان إلى جانبه، ثم قال: قد رضيت عنك يا كميت، فقبل يده، وقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تزيد في تشريفي ولا تجعل لخالد على إمارة، قال: قد فعلت، فكتب له بذلك، وأمر له بأربعين ألف درهم، وثلاثين ثوباً هشامية، وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ففعل ذلك» .

قدر للكميت أن ينجو هذه المرة، ولعله قال ما قال مدحاً في بنى أمية وهو ينظر إلى قوله تعالى «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»^(١).

ولسنا في حاجة إلى الدفاع عن الكميت وإلباس مدائحه لنبي أمية ثوب الهجاء، فقد استطاع الكميت بحدة ذكائه وسرعة بديهته أن يحيك لها ذلك الثوب، فكفانا بذلك تكلفة والتماسه خلف حجب الظن.

ولننظر معاً إلى قوله:

وإلى القيامة لا تزال لشافع منكم وواتر^(٢)

فهذا البيت وإن كان يرضى هشاماً فإنه في الوقت نفسه يؤلب عليه الأحزاب المعادية المتربصة له، والتي تنتظر موت كل خليفة أموى لتطالب بالخلافة لشيعتها، البيت إذن صرخة يطلقها الكميت من خلف قهقهة هشام طرباً له.

ولننظر إلى السخرية اللاذعة التي قصد إليها الكميت من خلال بيت رقيق فيقول:

(١) سورة النحل آية ١٠

(٢) الضمير المستتر يعود على الخلافة

بهم صلح الناس بعد الفساد وحيص من الفتق مارعبلوا

فهل ساد الفساد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فجاءت بنو أمية لتصلح هذا الفساد، وتجمع شمل الأمة بعد تفرقها وهم أول من فرقها وقطع سبل جمعها؟!

ومن النقاد المعاصرين للكميت من رأى في قوله:

اليوم صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

أنه إنما أراد: اليوم صررت إلي بنو أمية والأمور إلى مصايرها أي بنو هاشم^(١). وهذا التأويل من عصر الشاعر يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا يفهمون شاعرهم حق الفهم ولا يشكون في نزاهته ويقدرّون محنته التي استنطقته بهذا الشعر.

كما أننا نلاحظ أن الكميت لم يصف دين بنو أمية ولم يتعرض له على الإطلاق، فلم يصفهم بالتقوى، والورع، إنما اكتفى بوصفهم بعلو النسب ورفعة الحسب، ونضارة الوجوه والكرم، وذلك ما كان يمدح به عرب الجاهلية.

ليس غريباً إذن أن يستمر الكميت على تشييعه لآخر لحظة في حياته.

خرجت الجعفرية^(٢) على خالد بن عبد الله القسري، وهو يخطب على المنبر، وهو لا يعلم بهم، فخرجوا في البيانين^(٣) ينادون: لبيك جعفر! لبيك جعفر! وعرف خالد

(١) أنظر الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٨٥

(٢) الجعفرية: القائلون بإمامة جعفر بعد أبيه محمد بن علي الباقر

(٣) البيانين: نسبة إلى بيان بن سمعان التميمي، وهم فرقة من الشيعة

خبرهم، وهو يخطب على المنبر، فدهش فلم يعلم مايقول فزعاً، فقال: أطمعوني ماء، ثم خرج الناس إليهم فأخذوا، فجعل يجيء بهم إلى المسجد، ويؤخذ طن قصب فيطلى بالنفط، ويقال للرجل احتضنه، ويضرب حتى يفعل، ثم يحرق، فحرقهم جميعاً.

فلما قدم يوسف بن عمر دخل عليه الكميت، وقد مدحه بعد قتله خالد بن عبد الله القسري، فأنشده قوله فيه:

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن كمن حصنه فيه الرتاج المضيب^(١)

وما خالد يستطعم الماء فاغراً بعدلك والداعى إلى الموت ينعب

وكان الجند قياماً على رأس يوسف بن عمر، وهم يمانية، فتعصبوا لخالد، فوضعوا ذباب سيوفهم في بطن الكميت فوجؤوه بها وقالوا: أنشد الأمير ولم تستأمره، فلم يزل ينزف حتى مات^(٢).

ومات الكميت شاعر آل البيت، لكن هاشمياته بقيت مشهورة في وجه سيرة بني أمية، وقد ابتلع التاريخ بني أمية، بينما بقيت هاشميات الكميت صورة نابضة بحياة أمة نائرة، وبتاريخ ملئ بصراعات، يؤكد دائماً أن البقاء للموقف، البقاء للكلمة.

(١) الرتاج المضيب: أى الباب العظيم المغلق بالضبة

(٢) الأغاني ج ١ ص ٦٢٨٧

شعراء قتلهم شعرهم _____

المتنبى

أصبحت الكتابة عن المتنبي من أشد الموضوعات صعوبة بالنسبة للمتخصصين في دراسة الأدب، فضلاً عن غيرهم، ماذلك إلا لازدحام المكتبة العربية والاستشرافية بأعداد لا حصر لها من الكتب التي تناولت الرجل، بدءاً من عصره شخصياً حتى لحظة كتابة هذه السطور.

والواقع أنه لم يلحظ شاعر عربي أو غير عربي، جاهلي أو إسلامي أو أموي أو عباسي أو عثماني أو من العصر الحديث، بمثل ماحظي به المتنبي من دراسات شملت حياته بكل دقائقها وشعره بكل حركاته وسكناته.

ودراسة حياته من خلال الكتب التي تصوررها أخباراً وأحداثاً، لا يقدم جديداً إلا اختلاف لغة الكاتب عن غيره من الكتاب، أما دراستها من خلال شعره الذي لا تكاد تنتهي جوانب الإبهار فيه، والذي تتسع مدلولات ألفاظه لتحمل على متنها الكثير من المعاني، والذي تحتفظ الصورة فيه بخروجها على سنة التطور التي تجعل من الحديث قديماً ومن القديم مجهولاً، فتظل هي صورة اليوم التي نرى في خطوطها عروبة مبدعها الذي لم يكن يكتب لعرب يعيشون عصر الدويلات وإنما كان يكتب للنفس العربية والإحساس العربي والنبض العربي الذي لا يتغير بتغير ملامح الخرائط ولا يهتز مع هزات التاريخ العنيفة.

إن دراسة حياته من خلال شعره فرصة كبرى للمكتبة الإنسانية - الخارجة عن الحدود الإقليمية الجنسية واللغوية - لتحوي إلى جانب شعره تصورات النقاد والأدباء عن حياة الرجل الذي أبدع هذا الشعر الذي لم يستطع أكثر من ألف خريف أن يسقطوا من دوحته الخالدة ورقة واحدة.

ومن خلال قصيدته الميمية التي قالها معاتباً سيف الدولة، سوف نتعرف على بعض

تفاصيل حياته وشخصيته وشعره، يقول:

واحر قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم^(١)
مالى أكتم حباً قد برى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حبٌ لغرته فليت أنا بقدر الحب نقسم^(٢)

بدأ المتنبي قصيدته بإطلاق زفرة حارة تدل على شدة امتلاء قلبه بالحب الذى تحول
دفؤه إلى نار مستعرة أمام محبوب بارد القلب لخلوه من الحب وإعراضه عن عاشقه، ثم هو
- ككل العشاق حين يقابل حبه بلا مبالاة - سقيم الجسم من كثرة السهر وطول الليالي
التي يبتيها يفكر فى سبب انصراف حبيبه عنه، وفى سبيل يسلكه حتى يصل من خلاله إلى
مرضاة هذا الحبيب.

كل بقدر حبه، ومن خلال قوله «ليت» التى تفيد التمنى ندرك مدى ثقته من حبه لسيف
الدولة ومدى ثقته من ادعاء هؤلاء الناس الحب، لذلك فهو يتمنى هذه القسمة العادلة التى
سوف يفوز فيها بالنصيب الأكبر إن لم يكن بالحب كله.

عرفنا من الأبيات أن المتنبي يمدح رجلاً يسمى «سيف الدولة» فمن هو سيف الدولة؟
وما علاقة الشاعر به؟ (كان سيف الدولة أمير حلب، وله من العمر إذ ذاك خمسة وثلاثون
عاماً، نموذجاً دقيقاً لأمير من «ألف ليلة وليلة»، وسيما، زهواً، تلتقى فيه كل خصائص
الشيخ البدوى، الطيب منها والردىء، طموحاً، متقلب الأطوار، تتأرجح شخصيته بين

(١) واحر قلبه: يتوجع من شدة حرارة قلبه من الحب، شيم: بارد، سقم: مرض

(٢) غرته: طلعت

القسوة والشهامة، مخلصاً، وفيّاً لرفاقه، شهوانياً، كريماً وأديباً، يزخر بلاطه بالعلماء والشعراء..... ذلك هو الرجل الذى استسلم له المتنبي عن حب وإعجاب لقيا صدى وقوبلا بترحاب، وخلال أعوام تسعة رافق الشاعر بلاط سيف الدولة فى أنطاكية والرقّة، وميفارقين، وحلب، ورافقه فى الحرب والمباهج فى الأفراح والأحزان، فى الصيد والقنص.

وهناك ازداد شهرة ونما ثراء، وهناك أيضاً أنشد أروع مدائحه التى عرفت بـ «السيفيات» نسبة إلى سيف الدولة^(١)، منها القصيدة التى نحن فى رحابها والتى يمدحه فيها بقوله:

| | |
|-------------------------------|---|
| قد زرتة وسيوف الهند مغمدة | وقد نظرت إليه والسيوف دم |
| فكان أحسن خلق الله كلهم | وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم ^(٢) |
| فوت العدو الذى يمتته ظفر | فى طيه أسف فى طيه نعم ^(٣) |
| قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت | لك المهابة مالا تصنع البهم ^(٤) |
| ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها | أن لا يواريههم أرض ولا علم ^(٥) |
| أكلما رمت جيشاً فاثنتى هرباً | تصرفت بك فى آثاره الهمم ^(٦) |
| عليك هزمهم فى كل معترك | وما عليك بهم عار إذا انهزموا |
| أما ترى ظفراً حلواً سوى الظفر | تصافحت فيه بيض الهند واللمم ^(٧) |

(١) «مع شعراء الأندلس والمتنبي» إميليو غرسيه غومث تعريب الدكتور الطاهر أحمد مكي ط دار المعارف ص ٢٢

(٢) الشيم: الأخلاق (٣) فوت العدو: تركه، تيممته: قصده، ظفر: نصر

(٤) البهم: الجيوش (٥) يواريههم: يستترهم ، علم: جبل

(٦) رمت: طلبت ، اثنتى: انسحب (٧) بيض الهند: سيوف تصنع فى الهند، اللمم: شعر خلف الأذن

وفى هذه الأبيات يقدم المتنبي تعليلاً لحبه لسيف الدولة، فقد عرفه فى أوقات السلم حيث كانت السيوف هادئة فى أغمادها، وعرفه فى حالة الحرب حيث كانت السيوف من كثرة إصابتها أجسام جنود الأعداء تبدو وكأنها مصقولة بالدم، فكان فى كلا الحالين أحسن خلق الله وكانت أخلاقه أحسن ما فيه.

ونلاحظ شدة الحساسية البلاغية لدى المتنبي، حيث اختار لوقت السلم قوله «زرت» واختار لوقت الحرب قوله «نظرت»، ذلك لأن أوقات السلم تسمح بالزيارة والمجاملة والمسامرة، بينما فى وقت الحب لا يرى إلا الكر والفر ولا يُسمع إلا هدير السيوف، فلا تسمح تلك الحالة إلا بالنظرة السريعة.

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن واقعة بين سيف الدولة والروم، فر فيها جند الروم ولم يدركهم سيف الدولة، فيحاول المتنبي إقناعه بأن عدم إدراكه لهم يعتبر نصراً، وإن كان يأسف لذلك فإن فى ذلك خير كثير حيث كسب المعركة بفرارهم دون أن يخسر شيئاً من جند أو سلاح، ومهما كانت نتيجة الحرب، فلا يمكن أن يحدث انتصار، أى انتصار، دون خسائر، ومن أجل المزيد من إرضاء الأمير، يعلل له الأمر، فثبته خوف الروم منه ومن قوته وسطوته قد نابت عنه فى المعركة وحقت مهابته ما لا تحققه الجيوش الجاررة، كما أنه لا يصح أن يحزن وقد ألزم نفسه شيئاً لا يلزم القادة أنفسهم به، فعلى القادة نزول المراكز وخوضها بقوة وحزم، فإذا انسحب العدو، فلا عار على القائد، حيث أنه لم يتخاذل ولم يتوان، ثم يتساءل فى تعجب: ألا ترى النصر نصراً إلا إذا صافحت سيوفك رقاب الأعداء حتى آذانهم؟! وهو بذلك يبالغ فى تقدير سيف الدولة لمعنى النصر الذى لا يكون إلا مخضباً بالدماء.

ويبدو أن هذه المعركة لم تكن نتيجتها فى صالح سيف الدولة وأظن أن فرار الروم كان

بعد أن ضربوه الضربة الأولى، وإلا فلماذا يلح المتنبي على تعزية الأمير لو لم يكن الأمر كذلك، إنه يستخدم كل براعته لتعليل عدم إدراك سيف الدولة لجند الروم، ولو كان فرارهم قبل القتال لما احتاج الأمر من المتنبي إلا قوله:

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة مالا تصنع البهم

لكنه أخذ يجمع الممكن والمستحيل من الصور التي أراد من خلالها رفع الروح المعنوية لسيف الدولة وإعادة ثقته بنفسه التي يريد إعدادها للعتاب حيث يقول:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم (١)

بدأ المتنبي بتقرير صفة العدل لسيف الدولة، بل جعله أعدل الناس، ثم استثنى من عدله مع جميع الناس معاملته وحده، ثم يفوض له الأمر كله بعد أن جعله حكماً وخصماً وموضوع خصام، فهو كل شيء فى هذه القضية، وهو بذلك يستثير عدالته ليتتصف لمن احتكم إليه من نفسه حتى يبلغ بذلك أقصى درجات العدالة.

ثم يرتفع بنظرة الأمير ونقاء ذهنه عن أن يخلط بين الأمور فلا يميز الخبيث من الطيب حتى وإن تشابها فى الشكل، كما يتشابه الشحم والورم مع اختلافهما فى الطبيعة.

(١) ناظره: عينه

وبالحكمة يغلف المتنبي عبارة في منتهى القسوة، يوجهها لسيف الدولة، حيث يقول له:
ماقيمة النظر إذا تساوت الأنوار مع الظلمات عند المرء، وفي هذا تجريح للأمير، ورمى له
بعدم التمييز بين أوضح الأشياء تناقضاً وهي النور والظلمة.

عرفنا أن المتنبي يشكو ظلاماً من سيف الدولة، فما طبيعة هذا الظلم وماظروف وقوعه؟
تتمثل طبيعة هذا الظلم في إعراض سيف الدولة عن المتنبي وميله إلى غيره من الشعراء
الذين لايساوونه فصاحة وشاعرية.

وقد كان المتنبي مقرباً لدى سيف الدولة أثيراً عنده، مما أثار عليه حفيظة غيره
من الشعراء، وكان على رأسهم الشاعر الأمير «أبو فراس الحمداني» بن عم سيف
الدولة، الذي كان يحمل أشد الضغائن للمتنبي، ويحسده على مكائنه من الأمير،
ويحاول النيل من هذه المكانة، هذا بالإضافة إلى استعلاء المتنبي على الشعراء
وذمهم والسخرية منهم ومن شعرهم بشكل جعله هدفهم جميعاً، يسعون به إلى الأمير
ويحاولون الإيقاع بينهما حتى أفلحوا في ذلك، وتغير الأمير من ناحيته، وكثر اعتذار
المتنبي له وكثرت وشاية الواشين، فأراد المتنبي أن يحسم هذا الأمر بهذا العتاب
الصريح الذي بدأه مادحاً، خافض الجناح، ولولا وجود أبي فراس الحمداني وغيره
من الشعراء الخاقدين عليه في المجلس لاستمر يمدح في لين، لكنه أحس بشماتتهم
فيه وعز عليه أن يقطر ماء وجهه أمامهم، فراح يفجر بنفسه مستعلياً على الجميع، بما فيهم
الأمير نفسه، ويفخر بشعره بازاً كل الشعراء، يقول:

| | |
|------------------------------|--------------------------|
| سيعلم الجمع من ضم مجلسنا | بأننى خير من تسمى به قدم |
| أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى | وأسمعت كلماتى من به صمم |

أُنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم^(١)

لاشك أن يأس المتنبي من عودة علاقته بسيف الدولة كما كانت، هو الذى دفعه إلى هذا لفخر الذى تجاوز فيه كل الحدود، حتى أنه لم يقم وزناً لوجود الأمير، ولم يستثنه من هذا لجمع الذى ضمه المجلس.

وفخر المتنبي بنفسه لم يكن وليد هذه القصيدة أو هذا الموقف، وإنما اعتاد الرجل أن يفخر بنفسه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، يقول فى إحدى قصائده التى كتبها فى صباه:

إن أكن معجباً فمعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا رب الندى ورب القوافى وسام العدى وغيظ الحسود^(٢)
ويقول:

أى محل ارتقى أى عظيم أتقى
وكل ما خلق الله به ومالهم يخلق
محتقر فى همى كشجرة فى مفرقى
ويقول:

وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

(١) شواردها: يريد أشعاره اللداعة الصيت، جراها: من أجلها

(٢) رب الإنسان: من ولد معه، سام: جمع سم

ويقول:

تغرب لامستعظماً غير نفسه
ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً
يقولون لى ماأنت فى كل بلدة
وماتبتنى؟ ماأبتنى جل أن يسمى

ويقول:

أعط عنك تشبيهى بما وكأنه
فما أحد فوقى ولا أحد مثلى
هكذا كان المتنبى فى تقديره لذاته، يراها الأعلى دائماً والأحق بالمجد والشرف ولا يتنازل
عن هذه الرؤية تحت أى ظروف كانت.

والغريب أن تكون هذه شخصية شاعر مداح، يصح أن نقول يرتزق بشعره، فالمفترض أن
المدح - لاسيما إذا كان الغالب على شعر الشاعر - يروض نفسه على الخنوع والخضوع
وإنكار الذات وتفانيها، على الأقل أمام شخصية المدوح، لكن المتنبى ظل يصون نفسه
متمردة متعالية لاتقبل إذلالاً.

كما أن فخر المتنبى بشعره لا يقل عن فخره بنفسه، فقد كان يمزج بين شعره
وذااته مزجاً لا ينفصل ولا ينحل، ففخره بنفسه هو فخره بالمتنبى الشاعر، وفخره
بشعره هو فخره بشعر المتنبى، وديوانه يمتلىء بالأبيات التى تصور شعره بما لم يصور به
شعر شاعر.

يقول:

لا تَجَسُرُ الفصحاءُ تنشد هاهنا
بيتاً ولكنى الهزبرُ الباسلُ^(١)

(١) الهزبر: الأسد

مانال أهل الجاهلية كلهم شعري ولاسمعت بسحري بابل
هنا يجعل المتنبي من مدح ممدوحه مدخلاً للفخر بذاته، فالشعراء لايجرؤن على إنشاد
الشعر أمامه وذلك لهيبته وجلاله، أما المتنبي فهو الأسد الذي لاتصده هيبة، كما أن شعره
فاق شعر أهل الجاهلية، وهو سحر لم تعرفه بابل وهى بلاد السحر.

ويقول:

إن هذا الشعر فى الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيما بيننا فقضى باللفظ لى والحمد لك
فإذا مر بأذننى حاسد صار ممن كان حياً فهلك
ومع فخره بشعره يجعل من نفسه نداً لسيف الدولة، بل قسيماً له وقد عدل الله بينهما
فقضى الفصاحة والشاعرية للمتنبي وقضى بالحمد والشكر لسيف الدولة، كما قدم نفسه
عليه فى الترتيب، وهو يحس بأنه شاعر محسود على مجده الشعري ويرى شعره قاتلاً
للحساد كمدأ، وهو القائل مخاطباً سيف الدولة:

أزل حسد الحساد عنى بكيتهم فأتت الذى صيرتهم لى حسداً

ويقول:

شاعر المجد خدنه شاعر اللف —ظ كلانا رب المعانى الدقاق
وهو هنا يمدح أبا العشائر بأنه شاعر، ولكنه شاعر مختلف، فهو يتعنى بالمجد فعلاً لا
قولاً، ويجعل من نفسه خدناً له ومكافئاً، فكلاهما رب المعانى الرقيقة حيث لا يستطيع أحد
مجاراة أبى العشائر فى مجده وفعاله، كما لا يستطيع أحد أن يجارى المتنبي فى مجده

الشعري وقدرته على إبداع الغريب من الشعر.

ويقول:

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبالي بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم
وهكذا يقول المتنبي بيتاً يرفع به ممدوحه ثم يتبعه بيتاً يرفع به نفسه وشعره حتى يقف
إلى جوار ممدوحه كتفاً بكتف، وربما جعل كتفه أعلى.

ويقول:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا سير مشمراً وغنى به من لا يعنى مفرداً
أجزنى إذا أنشدت شعراً فإنيما بشمري أتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فإني أنا الطاهر المحكى والآخر الصدى
هنا يجعل المتنبي من الدهر راوية لشعره ومنشداً، وهو يتيه بشعره حتى على ممدوحه،
ويجعل الجائزة حقاً له لامنحة، حيث جاء الشعراء يرددون شعره وفي ذلك مجد للممدوح،
كما يرى شعره الأصل بينما الآخرون يقلدون شعره كما يقلد الصدى الصوت.

هكذا كان فخر المتنبي بشعره وتقديره له، لذلك لم يكن غريباً أن يقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
فما أسهل أن يبدع هذه الأشعار الرائعة ثم ينام هادئ البال مطمئن، بينما الناس من نقاد

وشعراء يسهرو الليالى فى تحليلها ودراستها وحفظها أو محاولة إبداع مثلها.

بعد أن أسعف المتنبي ذاته بالفخر بها وشعره بأن ارتفع به فوق كل شعر، كان عليه أن يستعرض قوته كفارس، فقال:

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| وجاهل مده فى جهله ضحكى | حتى أثنه يد فراسة و(١) |
| إذا رأيت نيوب الليث بارزة | فلا تظن أن الليث يبتسم |
| ومهجة مهجتي من هم صاحبها | أدركتها بجواد ظهره حرم (٢) |
| رجلاه فى الركض رجل واليدان يد | وفعله ماتريد الكف والقدم |
| ومرهف سرت بين الجحفلين به | حتى ضربت وموج الموت يلتطم (٣) |
| الحيل والليل والبيداء تعرفنى | والسيف والرمح والقرطاس والقلم |
| صحبت فى الفلوات الوحش منفرداً | حتى تعجب منى القور والأكم (٤) |

ويرى المتنبي أن قوة الفارس تبدو أول ماتبدو فى حلمه، وهو أمام الجاهلين رجل حلیم، لاعن ضعف لكن عن رغبة فى جمع الشر فى نفسه، فإذا ما ازداد الجاهل جهلاً أمام ذلك الحلم، فلا بد من المواجهة العنيفة من خلال اليد القوية المفترسة، والفم الفصيح الهجاء الذى يمكنه أن يقوم مقام جيش بأكمله، وهو يضرب مثلاً لتبسمه فى وجه الجاهل عليه بالأسد الذى يكشر عن أنيابه استعداداً للانقضاض على فريسته، فليس ظهور أنيابه على هذه الحالة تبسماً أو ضحكاً.

(١) فراسة: مفترسة

(٢) المهجة: الروح، جواد ظهره حرم: أى آمن لمن يركبه

(٣) مرهف: يقصد سيفه الحاد، الجحفل: الجيش

(٤) الفلوات: جمع فلاة، وهى الأرض المقفرة، القور: المكان العالى من الأرض، الأكم: الجبل الصغير

ويأتيه بجواده القوى الذى يكو ظهره حرماً آمناً لمن يركبه فلا يصيبه مكروه كما لا يصيب
المحتمين بالحرم، فهو يدرك بذلك الجواد روح عدوه الذى كان يسعى لإدراك روحه هو
ويجعلها همه.

ونلاحظ فى هذا البيت «ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجوارده ظهره حرم»
أن المتنبي كان شديد التحكم فى المعنى بحيث وضعه - وهو معنى ملتف مكثف - فى بيت
واحد، وهذه قدرة لا تتأتى إلا للشاعر عملاق كالمتنبي.

ولانتفق مع أستاذنا الدكتور «محمد أبو الأنوار» الذى يرى البيت غامضاً ومليناً بالمعازلة
والغموض، حيث يقول:

«والبيت عندى لا يخلو من غموض ومعازلة والشاعر يريد أن يقول: رب مهجة من هم
صاحبها أن يلحق بى القتل، ولكنى أنا الذى أفتك بهذا العدو وأدركه بجواد من ركه كان
آمناً. كأن ظهره أرض الحرم من لاذبه كان فى مأمنه»^(١).

وهذا ليس شرحاً للبيت، فقد أورد أستاذنا شرح البيت بعد ذلك، ولكنه تبخير للتكثيف
الذى قام به المتنبي فى البيت، أو إعادة كتابة البيت بشكل منشور ليكون أوضح وأيسر
للقارئ.

لكننى أرى أن البيت يخلو من المعازلة والتعقيد والغموض، ومن خلال القراءة الثانية أو
الثالثة على الأكثر - قراءة متأنية، معربة للبيت - يتضح البيت تماماً، فيكون ترتيب البيت فى

(١) فى الشعر العباسى تطوره وقيمه الفنية د. محمد أبو الأنوار ص ٣٥٥ ط. مكتبة الشباب

تصورى كالاتى: «ومهجة أدركتها بجواد ظهره حرم، وكانت مهجنى من هم صاحبها» وهذا الترتيب هو نفسه ترتيب المتنبي، فنحن لم نزد عليه إلا كلمة (كانت)، ولو كتب البيت هكذا:

ومهجة - مهجنى من هم صاحبها- أدركتها بجواد ظهره حرم

لخلا تماماً من التعقيد والغموض والمعاذلة التى يشعر بها البعض، ولانفتح البيت من القراءة الأولى.

ثم اتجه المتنبي إلى ووصف فرسه السريع، الذى تبدو رجلاه من شدة السرعة كأنهما رجل واحد وتبدو اليدان كأنهما يدٌ واحدة، وهو شديد الاستجابة لحركات فارسه، فيفعل ما تريد قدمه وكفه وكأنهما جسد واحد.

وهو بسيفه المرفف يسير بين الجيشين العظيمين، ويظل يضرب والموت يحيط به من كل جانب كأنه الموج العاتى الذى يطغى على الشط ويكسر الصخور، لكنه لا يبالى بكل ذلك لشجاعته، فقد عرفته الخيل فارساً شجاعاً مغواراً، وعرفه الليل جوالاً فيه لا يهاب ظلمته وماتخبيء من شرور للعابرين، وعرفته الصحارى، فقد جابها شرقاً وغرباً وعرف كل شبر فيها وكل حبة رمل من رمالها، وعرفه السيف قتالاً، والرمح طعاناً، والأوراق والأفلام شاعراً فصيحاً لا يدانيه شاعر عربى.

وهو بكل هذه السجاياء كان خليقاً أن ينفرد فى الصحراء مع الوحوش لا يهابهم، حتى تعجبت منه مظاهر الطبيعة من مرتفعات ومنخفضات.

لاحظنا أن المتنبي فخر بالحلم والشجاعة والبطش والفروسية والفصاحة، وهذه من السمات التى يعتز بها العربى لكنه لم يفخر بأهم مفاخرهم وهى الكرم وعلو النسب.

فهل كان المتنبي بخيلاً؟ وهل كان ذا نسب وضيع؟

كان المتنبي بخيلاً فعلاً (وقد سئل في ذلك فقال: إن للبخل سبباً، وذلك أنى أذكر وقد وردت في صباى من الكوفة إلى بغداد، فاتخذت خمسة دراهم في جانب منديل، وخرجت أمشى في أسواق بغداد، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة، فرأيت خمسة بطيخات باكورة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي، فتقدمت إليه: بكم هذه الخمس بطاطيخ؟ فقال: بغير اكتراث- اذهب فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه وقلت: أيها الرجل دع ما يغيب واقصد الثمن، فقال: ثمنها عشرة دراهم، فلشدة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة، فوقفت حائراً، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الحان ذاهباً إلى داره فوثب إليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له وقال: يامولاي هابطيخ باكورة، بإجازتك أحمله إلى منزلك، فقال الشيخ: ويحك! بكم هذا؟ فقال: بخمسة دراهم، فقال: بل بدرهمين، فباع الخمسة بدرهمين، ودعا له وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل، فقلت: يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك، استمت على في هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنت قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً! فقال: اسكت. هذا يملك مائة ألف دينار... وأنا لا أزال على ماتراه حتى أسمع الناس يقولون: إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار)^(١).

(وهذه الصفة كانت نتيجة حبه للعلا وطماحه للمجد وحرصه على أن ينهض بتبعاته الثقال التي يعد نفسه لها، خاصة وأن مثل المتنبي في طباعه وخلائقه لا يصادق الضعفاء أو

(١) ديوان المتنبي ج١ ص ٦٥، شرح عبد الرحمن البرقوقي ط. دار الكتاب العربي، بيروت

المتوسطين من الناس، بل شأنه أن يكون في تعامله على اختلاف ألوانه ومشاربه مع الكبار من ذوى الشأن والغلب، ومثل هؤلاء يدفعونه في صراعه معهم ومع الحياة إلى التسليح بالاستغناء، والمال عصب في هذا الدور من أطوار الصمود والكفاح، فلم تكن ظروف شخصيته تجعل منه ذلك الشخص الذى يفرغ للنظر فى شئون المحتاجين وذوى العسرة، أو تجعل مسألة الإحسان والعطاء همأ من همومه، بل ذلك شأن الآخرين الذين ليس هو منهم^(١).

والطريف أنه لما أصاب الثراء فى رحاب سيف الدولة لم يتغير سلوكه فى الإنفاق، على الرغم من أنه ترك كل ما يملك للفقراء، ولكن ماذا ترك لهم؟ يقول:

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وأنعلت أفراسى بنعماك عسجداً
فلم يكن يملك غير السير بالليل والترحل فى الصحراء، فلما أصبح غنياً ترك ذلك للفقراء وألبس خيله نعالاً من الذهب.

لذلك لم يفخر المتنبى بالكرم حتى لا يقابل بالسخرية من الجالسين المتربصين المنتظرين منه هفوة، ولم يفخر المتنبى بنسبه حتى لم يكن رفيع النسب متيماً لأحد البيوت الكبيرة، وإنما كان من أسرة فقيرة، وكان أبوه يعمل سقاءً بالكوفة، وقد هجاه أحد معاصريه قائلاً:

أى فضل لشاعر يطلب الفضل كل من الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع فى الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيما

(١) فى الشعر العباسى ص ٣٢٠

وهو بذلك يعرض بمهنة أبيه الذى كان يسمى «عيدان السقاء».

ولم يكن لمسألة نسبه هذه تأثير على ذاته المتضخمة ولا على شعره، إنما كان يتجاوز هذه المسألة بنفس الاستعلاء والشموخ فيقول:

لابقومى شرفت بل شرفوا بى
وبنفسى فخرت لاجدودى
وقال فى رثاء جدته يخاطبها:

ولو لم تكونى بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لى أما
لم يكن المتنبى يفخر بنفسه، بل كان يفخر بانتسابه لنفسه، ويتيه بنفسه على أهله ويرى نفسه مدعاة فخر لهم.

بعد أن افتخر المتنبى بنفسه فارساً واستجمع قواه النفسية، كان عليه أن يعلن قرار رحيله عن سيف الدولة، فقال:

| | |
|---------------------------|--|
| يامن يعز علينا أن نفارقهم | وجداننا كل شىء بعدكم عدم |
| ماكان أخلقنا منكم بتكرمة | لو أن أمركم من أمرنا أمم ^(١) |
| إن كان سرکم ما قال حاسدنا | فما لجرح إذا أرضاكم ألم |
| وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة | إن المعارف فى أهل النهى ذمم ^(٢) |

(١) أمم: قريب

(٢) النهى: العقول، ذمم: عهود

وعلى الرغم من أن هذا الرحيل لا بد منه فإن الشاعر حزين لاضطراره للرحيل، وعزيز عليه مفارقة صاحبه وأميره وممدوحه الذى أنتجت خصاله الحميدة مع قريحة المتنبي الشعرية، أروع القصائد التى شهدتها عالم القصيدة، إذن كل شيء بعد هذا الرحيل عدم فى عين أبى الطيب.

ويعاود المتنبي رفته فى العتاب، فيقول لسيف الدولة: ما كان أحقنا بتكريمكم لنا ورعاية وجودنا لو كان فى قلبكم حب قريب مما فى قلبنا. لكنكم استمتمت إلى قول الحساد بل سررتم به، ومع أن ذلك قد جرحنا إلا أننا لانتالم لجرح أرضاكم، ولكن كان يجب عليكم أن ترعوا حق العلاقة القديمة الحميمة، فالمعارف والعلاقات والعهود والمواثيق عند أصحاب العقول، يجب رعايتها والمحافظة عليها وعدم نقضها.

ويتدفق إحساس المتنبي بذاته فيشتد فى خطاب سيف الدولة، فيقول:

كم تطلبون لنا عيأً فيعجزكم ويكره الله ماثئون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم^(١)

هنا يتجاوز حد العتاب إلى مهاجمة سيف الدولة، واتهامه بالتربص له والبحث عن سقطاته وتلمسها له، مع أن الدين ينكر ذلك السلوك، كما تنكره الأخلاق الكريمة، ثم يثب المتنبي للدفاع عن ذاته ضد هذه المحاولات، فيقرر أن شرفه أبعد ما يكون عن العيب والنقصان، فهو كالأنجم العالية التى لاتدركها انحناءات

(١) الثريا: الأنجم المجتمعة، الهرم: الكبر والشيخوخة

الشيخوخة وتجاعيد العجز، وهو يربط بشكل فنى بين أن تشيخ النجوم وبين التصاق العيب به.

وقوله: «أنا الشريا وذان الشيب والهزم» يجعلنا نشير إلى إكثار المتنبي من استخدام كلمة «أنا» فى شعره، وطبيعى أن يكثر من استخدامها شاعر نرجسى يحس بعملقة ذاته أمام الدوات الأخرى، ومن أمثلة ذلك قوله:

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدى وغيظ الحسود

أنا فى أمة تداركه الله به غريب كصالح فى ثمود

وقوله:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البها حث والنجل بعض من لجله

أنا الذى بين الإله به الأقدار ر والمرء حيثما جعله

وقوله:

أنا صخرة الوأى إذا مازوحت وإذا نطقت فلأننى الجوزاء

وقوله:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

وقوله:

أنا ابن اللقاء، أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب، أنا ابن الطمان

أنا ابن الفيافى، أنا ابن القوافى أنا ابن السروج أنا ابن الرعان

وقوله:

كذا أنا يادنيا، إذا شئت فاذهبي ويانفس زیدی فی کرائهها قدماً
(إن الإشارة بالأنا تتجاوز إذن دائرة الفخر التقليدي لتنزل في سياق الرفض الذي يقوم
أساساً على صلابة الذات)^(١)، ذلك فضلاً عن إكثاره من استخدام «ياء المتكلم» و«تاء
الفاعل» وكذلك استتار «أنا» إذا لم يسمح الوزن أو النح
بعد أن عزف المتنبي سيفونية الرفض وجعل العيب والنقصان بمر
لأيام صفائه مع سيف الدولة، فقال:

ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهن إلى هـ
أرى النوى يقتضي كل مرحلة لاتستقل
لئن تركن ضميراً عن ميامنا ليحدثن
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تنفاد

هنا يتمنى الشاعر أن يزيل سيف الدولة الغضب عنه ويوجهه إلى
الوشاة الذين يكافؤهم بتقريبهم واصطفاؤهم، بينما يبعده ويجفوه.
والآن يصرح الشاعر بترحله عن سيف الدولة، وهو يشعر بداية بصعوبة هذا الرحيل
ومشاقته حيث تعجز الإبل السريعة القوية عن قطع هذه الرحلة.

(١) «الرفض ومعانيه في الشعر العربي» يوسف الحناشي الدار العربية للكتاب تونس ص ١١٧
(٢) الديم: المطر الهادي (٣) النوى: البعد، تقتضي: تكلفني، الوخادة: الإبل المسرعة، الرسم: التي ترسم
بأخفافها في الأرض
(٤) ضمير: اسم جبل على يمين الراحل من الشام إلى مصر

وأعتقد أن هذه الصعوبة التي يستشعرها أبو الطيب إزاء هذا الرجل أمر غريب عليه، وهو رجل كثير الترحال لا يستقر بأرض حتى يغادرها ولا تقوم بينه وبين أى مكان ألفة أو مودة كالتى تقوم بين الناس والأماكن التى يرتادونها، وفى شعره إشارات إلى هذا المعنى، حيث يقول:

ألفت ترحلى وجعلت أرضى قثودى والغريرى الجلالا^(١)
فما حاولت فى أرضى مقاماً ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تمحى أوجهها جنوباً وشمالاً
يقول:

غنى عن الأوطان لا يستخفى إلى بلد سافرت عنه إياب
أعز مكان فى الدنى سرج سابح وخير جليس فى الزمان كتاب^(٢)
يقول:

وكل امرئ يولى الجميل محبوب وكل مكان يثبت العز طيب
إذن لم يكن للمكان فى نفس المتنبى ذلك الأثر الذى يجعل الرحلة عن مكان ما مسألة صعبة وشاقة تضيق بها الناقة القوية والفرس العظيم.

(١) القثود: جمع قثد وهو خشب الرجل، الغريرى: الفحل الكريم، الجلالا: العظيم
(٢) السابح: الفرس السريع الجرى (والأبيات بتصرف أوردتها من غير ترتيب)

وفى رأى أن ترحال المتنبي عن سيف الدولة ترحال نفسى وهذا هو سر صعوبته، فبعد تطواف طويل فى شرق البلاد وغربها، وجد المتنبي سيف الدولة، وجد فيه شخصية العربى الذى يتمناه بعد أن أصبح العرب دميّ فى يد الأعاجم، فكان سيف الدولة رمزاً للإباء العربى الذى كان يرجوه المتنبي ويبحث عنه، لذلك لما وجده أخلص له المدح واتخذهُ صديقاً وكان معه فى الحروب فارساً والآن هو ينوى الرحيل، والرحيل إلى مصر حيث يحكمها عبد يسمى كافور أسود مثقوب الأذن، فأين هذا العبد من سيف الدولة العربى الأصيل الكريم الشهم الشجاع الوسيم، الذى وجد فيه المتنبي رمزاً للمجد العربى ورفعة المجتمع العربى بعد انتكاسته وانقسامه إلى دويلات ضعيفة هزيلة لا يمكنها أن تصد معتدياً أو تصمد أمام غاز.

إذن كانت المشقة والصعوبة اللتان يستشعرهما المتنبي ثمثلان إحساسه الصادق، كما أن الناقة القوية والفرس العظيم الضخم لا يمكنهما أن يقطعا هذه المسافة التى هى فى وجدان أبى الطيب على الرغم من أنها أقصر من المسافة بين قطرة وأخرى من دمه.

وأمام إحساس المتنبي بمدى خسارته بقيامه بهذه الرحلة - الاضطرابية - كان من حقه أن يهدد الأمير ويضع أمامه صورة واضحة للوضع بعد رحيله، فلا بد أن ينتابهم الندم لأنهم فرطوا فى شاعرهم وفارسهم. وهو يرى أنه لم يرحل عنهم بل هم الذين رحلوا عنه، لأنهم كانوا يستطيعون أن يسترضوه ويعملوا على إبقائه معهم، لكنهم خذلوه واستمعوا إلى قول الوشاه فيه، فبذلك كانوا راضين برحيله حيث كان يمكن منعه ولكنهم تقاعسوا، إذن هم الراحلون وليس هو.

وهذا المعنى يؤكد رأينا في أن هذا الرحيل رحيل نفسى قبل أى شىء.

ومن المرارة التى تغص بها نفس المتنبي انطلق لسانه بالحكمة فقال:

- | | |
|--------------------------|---|
| شر البلاد مكان لا صديق، | وشر ما يكسب الإنسان ما يصم ^(١) |
| وشر ما قنصته راحتى قنص | شهب البزاة سواء فيه والرخم ^(٢) |
| بأى لفظ تقول الشعر زعنفه | تجوز عندك لا عرب ولا عجم ^(٣) |
| هذا عتابك إلا أنه مقه | قد ضمن الدر إلا أنه كلم ^(٤) |

وهذه الحكمة ليست حكمة مجردة، ولكنها وليد شرعى للموقف، ومن خلالها يعلن المتنبي أنه لم يعد له فى هذه البلاد صديق، إذن ذهب سيف الدولة الصديق، وبقي الأمير الممدوح المانح إذا كان عطاؤه على حساب كرامة المتنبي فهو شر العطاء، وشر ما كسبه الشاعر كسب تساوى به مع الأخساء من الشعراء المفتقرين إلى الفصاحة وطلاقة اللسان.

ويكره أبو الطيب أن يتساوى مع هؤلاء تماماً كما يكره أن تتساوى النسر الجارحة القوية الشامخة العالية مع الطيور الحقيرة آكلة الجيف، إن فى هذه المساواة إهانة كبرى للشاعر الذى كان يرى الكون تحت قدميه.

وهذا العتاب الذى وجهه الشاعر لصاحبه، برغم كل مافيه من تجريح وخشونة وإغلاظ أحياناً، إلا أنه صادر عن الحب، وعلى الرغم من أنه كلام، إلا أنه حوى بين جنباته دراً

(١) يصم: يعيب

(٢) قنصته: صادته، شهب البزاة: الصقود ذات الريش الأبيض المختلط بسواد، الرخم: طيور ضعيفة تأكل الجيف

(٣) الزعنفه: اللثيم

(٤) المقه: الحب

خالدة تعيش قوية في زمن متداع، وتبقى مصقولة جليلة براقعة، رغم الأيام الصدئة.

إدعائه النبوة

عرضنا من خلال القصيدة بعض الجوانب من حياة وشخصية وشعر المتنبي، وبقي أن نتطرق إلى مسألة هامة، وهي مسألة إدعائه النبوة، وهذه المسألة قد حيرت الكثير من الباحثين على مر العصور، ففي شخصية الرجل وسلوكه وطبيعة العصر الذي عاشه، في كل ذلك ما يدفع إلى قبول حدوث هذا الإدعاء، وثبوت التهمة عليه. والذي يجعل الخيرة أوسع بحيث تشمل كل من كتب في هذه المسألة، أن في شخصيته وسلوكه وطبيعة عصره أيضاً ما يدفع إلى رفض هذا الإدعاء.

المسألة إذن مسألة اختلاف في وجهات نظر الباحثين في شخصيته وسلوكه وطبيعة عصره. والواقع أن المتنبي عاش حياة كريمة بين العرب المسلمين، وتجول في البلاد بكل عزة وكرامة ولم يبرح أرضاً إلا بإرادته التي تملأ عليه ما يناسب إحساسه بذاته ومكانته، كما حظى شعره بشهرة عريضة، لم يكن عربى في عصره لا يعرفه ولا يحفظ شيئاً من شعره، وقد نزل على الولاة والأمراء فمدحهم وأكرموا وأجزلوا له العطاء، وكانوا يحرسون على بقائه معهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

هل كان يمكن أن تكون هذه حياة رجل اتهم بادعاء النبوة؟! هل كان العرب يقبلون بينهم رجلاً يكذب على الله ويرفع نفسه إلى مكانة مساوية لمكانة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ذلك فضلاً عن الترحيب به والعمل على إرضائه واستبقائه، وقد كانت القبائل تلقى بأبنائها في لظى الحرب من أجل نصرة أى رجل علوى أو حتى يدعى العلوية، وذلك غيرتهم على آل البيت، فما بالنا بغيرتهم على نبيهم نفسه،

ودينهم الذى أقام لهم هذه الدولة التى يموتون من أجل الحفاظ عليها وإعادتها إلى ماكانت عليه من قوة وسيطرة.

وهل كانوا يحتفون بشعر شاعر تجاوز الزندقة بمراحل أدت إلى إدعاء النبوة؟ ويشرحونه ويحفظونه، بينما أسقط تاريخ الأدب من أشعار الجاهليين مذكروا فيه الأصنام والأوثان، فلم يبق من ذلك إلا النذر اليسير الذى ارتبط بحادثة معينة مع شاعر معين، كالصنم المسمى (بذى الخالص) مثلاً مع امرئ القيس.

إن العرب الذى تركوا أشعاراً كثيرة لوجود أسماء الأصنام فيها، ماكانوا ليحافظوا على شعر رجل ادعى النبوة وحاول محاكاة قرآنهم - كما تنسب ذلك له بعض الروايات - حتى يصل إلى أيدينا محققاً، مشروحاً، حاملاً سيرة صاحبه.

بعيداً عن التطرق إلى تفاصيل هذه المسألة، وذكر كل أو حتى معظم الآراء التى قيلت فيها، نستطيع أن نقول دون مغالاة أن المتنبي لم يدع النبوة. فمن أين إذن لحقه هذا اللقب؟

يجيب على هذا السؤال شيخنا الأستاذ محمود شاكر فيقول:

(وعندنا أن أبا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٣٢٦ واتصل سبيه ببدر بن عمار ولزمه وعلا عنده وأصاب كرامة لم يصب مثلها من قبل، وناوشه الشعراء إذ خافوه على أرزاقهم ، وطفقوا يتتقصون الرجل ويطلبون له العيوب وأغراهم لذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس لهوهم وانصرافه عن الهزل الذى يكونون فيه، وظنوا به الكثير فأخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به، فلما وقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء فى هذا الشعر وتشبيه نفسه بهم، وماهو فيه من التعفف والتورع، أرادوا له

لقباً ينبذونه به، فلقبوه (المتنبى) يريدون التشبه بالأنبياء، وأخذوا يذكروه بهذا الاسم ويتداولونه بينهم^(١).

ومن الواضح أن شيخنا قد أجهد ذهنه للوصول إلى هذا التحليل، لكنه التحليل الوحيد المقنع حينما نرفض مسألة إدعاء المتنبى النبوة.

مقتله

قتل المتنبى بسبب الهجاء، على الرغم من أن الهجاء لا يمثل ركناً أساسياً فى ديوانه، وإنما اقتصر على التنفيس اليسيرة ووبعض المقطعات التى هجا فيها كافور والى مصر وهجا معه شعب مصر الذى جعله والياً وحاكماً.

وكان المتنبى قد قصد مصر ليمدح واليها كافورا، الذى كان عبداً أسود خصياً مثقوب الأذن، لكن المتنبى لم يكن يهتم بهذه الصفات فى أول الأمر، فالرجل يبحث عن ولاية يليها يبدأ بها نواة دولة كبيرة، فلا بأس إذن من مدح كافور العبد، إذا كان ذلك يحقق مأربه، لكن كافور خذله وخيب أمله، فأطلق المتنبى فيه لسانه يهجو، فقال:

أريك الرضى لو أخفت النفس خافياً وماأنا عن نفسى ولاعنك راضياً

أميناً وإخلافاً وغدراً وخسة وجنباً، أشخصاً لحى أم مخازياً؟^(٢)

تظن ابتساماتى رجاءً وغبطة وماأنا إلا ضاحكاً من رجائى

(١) «المتنبى» للأستاذ محمود شاكر

(٢) المين: الكذب، المخازى: الأفعال القبيحة المخزية

| | |
|------------------------------|--------------------------------|
| وتعجبني رجلاك فى النمل إننى | رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا |
| وإنك لاتدرى ألونك أسود | من الجهل أم قد صار أبيض صافياً |
| ويذكرنى تخييط كعبك شقة | ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا |
| ولولا فضول الناس جثتك مادحاً | بما كنت فى سرى به لك هاجياً |
| فأصبحت مسروراً بما أنا منشد | وإن كان بالإنشاد هجوك عالياً |
| فإن كنت لاخيراً أفدت فى إننى | أفدت بلحظى مشفريك الملاحيا |
| ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة | ليضحك ربات الحداد البواكيا |

هنا يخرج المتنبي كل تقززه من ذلك العبد الذى اضطره طموحه إلى مدحه، فيقول له إن نفسه لم تعد تطيق إظهار الرضا عنك والحب لك، كما يظهر لومه وعتابه لنفسه التى قصدت ذلك الرجل الذى لم يعرف حق المتنبي ولم يرع قدره، ثم يصفه بكل صفات الرجل الدنىء من الكذب وإخلاف الوعد والغدر والخيانة وخسة الأصل والجبن، ثم يتساءل فى تقريرية: أشخص أنت أم مجموعة من الأفعال الدنيئة المخزية، قد تمثلت فى بشر؟! ثم يصون ابتسامته عن أنها ابتسامة رجاء وخضوع وطمع، لكنها ابتسامة الضاحك من رجائه الذى يطلبه عند من لا يكون أهلاً للرجاء، ثم يشير إلى رجليه الغليظتين المشققتين اللتين يظنهما الرائي متعلتين لشدة سوادهما، ويرى أن الخيوط التى تكون فى الحذاء تشبه الشقوق التى ملأت كعب كافور، وفى هذا إشارة إلى أيام عبوديته التى كان يقضيه حافياً، وهو يرى أن جلده الأسود يشبه ثوبا من الزيت إذا تصبب منه العرق بينما هو عار.

ويقول لولا فضول الناس وتدخلهم فيما لايعنيهم لمدحتك بالهجاء الذى أضمره لك فى

نفسى، فمثلك لا يمكن له أن يفرق بين المدح والهجاء لشدة غيبائه، وكثيراً ما كنت تسر وتظننى أمدحك، بينما أنا أهجوك وأنت لاتفهم الكلام.

وأخيراً يقرر المتنبى أنه لم يستفد خيراً من كنف ذلك العبد، ثم يسخر من نفسه أو يأسى عليها، فلم تستفد إلا رؤية شفثيه الغليظتين اللتين تشبهان شفثى البعير، فمثله يقصده الناس من البلاد البعيدة القاصية ليضحك الثكالى بمنظره الغريب فيخرجون من حزنهم وينخرطون فى الضحك منه.

وقال يهجو كافوراً أيضاً:

| | |
|----------------------------|--------------------------------------|
| فلا تَرَجَّ الخير عند امرئ | مرت يد النخاس فى رأسه ^(١) |
| وإن عراك الشك فى نفسه | بحاله فانظر إلى جنسه |
| فقل ما يلوم فى ثوبه | إلا الذى يلوم فى فرسه ^(٢) |
| من وجد المذهب عن قدره | لم يجد المذهب عن قنسه ^(٣) |

يقول المتنبى إنه ليس عند عبد أذله النخاس وعبث به يمينا ويساراً وأوسع ضريباً، ليس عند هذا العبد الذى عاش تلك الظروف خير، لاسيما إذا أصبح أميراً أو والياً، فيستمر إحساسه بالنقص ويحاول إذلال الناس.

ثم إنك إذا شككت فيه وفى فعاله، فانظر إلى أصله من العبيد الذين لا يرجى منهم خير

(١) النخاس: تاجر الرقيق

(٢) الفرس: جلد رقيقة تخرج مع المولود

(٣) القنس: الأصل

ولاكرم ولا مروءة، فالذى ولدته أمه لثيماً وضعياً لا بد أن يستمر على لؤمه ووضاعته حتى يفارق الحياة، وإذا صار ذا قدر ونسى أيام عبوديته فإنه لا يستطيع أن ينسى أصله.

وقال يهجوهُ أيضاً وهو راحل عن مصر:

| | |
|------------------------------|--|
| المعبد ليس لحر صالح باخ | لو أنه في ثياب الحر مولود |
| لا تشتر العبد إلا والعصا معه | إن العبيد لأنجاس مناكيد ^(١) |
| ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن | يسىء بى فيه عبد وهو محمود |
| ولا توهمت أن الناس قد فقدوا | وأن مثل أبى البيضاء موجود ^(٢) |

يقرر المتنبي أن العبد لا يمكن أن يكون أخاً وقريناً لحر صالح حتى لو كان مولوداً فى ثياب الحر، والعبيد أنجاس لا خير فيهم ولا يصلحون إلا بالضرب والإهانة والازدراء، ثم يأسف لأن العمر امتد به حتى الزمن الذى يكون فيه العبد محموداً مشكوراً بينما يسىء للأحرار والأشراف، ولا كان يخطر فى باله حتى على سبيل التوهم أن الناس قد ماتوا جميعاً فلم يبق إلا كافور، ويكنيه بأبى البيضاء استهزاءً به، فمن أين تأتية الطفلة البيضاء وهو بهذا اللون^(٣)، إنه زمن ردىء ذلك الذى ترقى فيه كافور وحده ليحكم الناس.

كان هذا بعضاً مما هجا به المتنبي كافوراً، وقد استطاع أن يرحل عن مصر

(١) مناكيد: جمع منكود وهو الرجل قليل الخير

(٢) أبى البيضاء: يقصد كافوراً وفيه استهزاء به

(٣) نلفت نظر القارئ إلى أننا نشرح شعر المتنبي ولانتبنى رأيه فى مسألة العبودية والألوان. «المؤلف»

دون أن يمسه سوء، وكان مقتله بسبب قصيدة هجا بها رجلاً يسمى «ضبة بن زيد»، قال فيها:

| | |
|-------------------------------|---------------------|
| وأمة الطرطبة ^(١) | ما أنصف القوم ضبة |
| لإنما هي ضربة | وما عليك من القت |
| وإنما هي سببة ^(٢) | وما عليك من الغد |
| غناه ضيخ وعلبة ^(٣) | ياقتلاً كل ضيف |
| أباتك الليل جنبه | وخوف كل رفيق |
| لدى يغالب ربه | كذا خلقت ومن ذا الـ |
| إذا تعود كسبه | ومن يبالى بـ |
| ة أين خلف عجب ^(٤) | فسل فؤادك يا ضبـ |
| لطالما خان صحبه | وإن يخنك فمـرى |
| وقد تبينت رعبه | وكيف ترغب فيه |
| نفتك عنا ملبة ^(٥) | ما كنت إلا ذهاباً |
| حملت رمحاً وحربة | وإن بعدنا قليلاً |

(١) الطرطبة: اسم أم ضبة، وقد حذفنا بعض الآيات لكثرة الفحش فيها

(٢) السبة: العار

(٣) غناه: كفاه، الضيخ: اللبن الممزوج بالماء، العلبة: قدح من الجلد يشرب به الماد

(٤) العجب: الكبير

(٥) الملبة: ما يطرد به الذباب

وقلت لبنت بكفى
عنان جرداء شطبه^(١)
إن أوحشتك المعالي
فإنها دار غربلة
أو أنستك المخازي
فإنها لك نسبة

يتعرض المتنبي لحادثة مقتل أبي ضبة وقد فر وترك أباه، وهو يستخف به ويسأله مستكراً: ما عليك والقتل ليس إلا ضربة ويموت القتل، والغدر يتناقله الناس ويسبونك به ولن ينالك من سبهم أذى. وهو بذلك يشير إلى خسته وعدم اهتمامه بسمعته وسيرته بين الناس.

ثم يصفه بالبخل الشديد لدرجة قتل الضيف الذى يغنيه أقل القليل من لبن مخلوط بالماء موضوع فى إناء بسيط من الجلد، فهذا الضيف الذى لن يكلفه إلا القليل المتيسر فى كل بيت. يضيق به ضبة حتى يهيم بقتله، ويصفه بالغدر حتى أن أصحابه يخافونه على أنفسهم فلا يطمئنون لومه إلى جوارهم، ويقرر المتنبي أن هذه الصفات صفات موروثه خلق بها ضبة أستطيع مخلوق أن يغير خلق الله فيه؟ ويسأله مستكراً: من الذى يهتم بالذم إذا كان معتاداً لهذا الذم لا يستطيع أن يفعل شيئاً يغير سيرته بين الناس، ويقول له: سل قلبك أين ترك الكبر والغرور وإدعاء الشجاعة فى هذه الواقعة حتى ترك أباه للأعداء يقتلونه، فإن يخنك هذا القلب ويجبن فلطالما فعلها وخان صاحبه، ويتساءل أيضاً فى استنكار: كيف ترغب فى هذا القلب الجبان وقد عرفت مدى رعبه عند المواقف الجادة التى تحتاج إلى حسم.

(١) العنان. سير اللجام، الجرداء من الخيل: قصيرة الشعر، الشطبة: الطويلة

وضبة على جنبه هذا لايزيد على كونه ذبابة نفته عن الرجال المذبة التى تنفى الذباب، بيد أنه إذا كان آمناً من أعدائه حمل الرمح والحربة وادعى الشجاعة وتمنى أن يكون بكفه عنان فرس عظيم طويل قوي سريع.

وأخيراً يقول له لا تشق إلى المعالى فإنها بالنسبة لمثلك أرض غريبة لم تطأها قدمك قبلاً، وإذا آنستك الأفعال البذيئة فلا عجب فى ذلك فإنها لك تنتسب.

وفى القصيدة أبيات كثيرة يتعرض فيها المتنبي لأم ضبة ويرميها بأفحش التهم ولم نستطع روايتها لما فيها من الألفاظ الخارجة والصور المكشوفة.

وكان لأم ضبة أخ يسمى «فاتك بن أبى جهل الأسدى» فلما بلغته القصيدة أخذ الغضب منه كل مأخذ وأضمر السوء لأبى الطيب، وكان أبو الطيب قد مر بأبى نصر محمد الحلبي فأطلععه على حقيقة مامر وماينويه فاتك من الشر ونصح به بأن يصحب معه من يستأنس به فى الطريق فلم يزدد إلا شقة وعناداً، وأبى أن يصحب معه أحداً قائلاً: أنا والجراز فى عنقى - يقصد سيفه - فما بى حاجة إلى مؤنس. ثم قال: والله لأرضى أن يتحدث الناس بأنى سرت فى خفارة غير سيفى، فحذره أبو النصر كثيراً فما كان منه إلا أن أجاب: أبنجو الطير تخوفنى، ومن عبيد العصا تخاف على؟ والله لو أن مخصرتنى هذه ملقاة على شاطئ الفرات وينو أسد معطشون لخمس، وقد نظروا الماء كبطون الحيات، ماجسر لهم خف ولاظلف أن يرده، معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين، فقال له أبو النصر: قل إن شاء الله. فقال: هى كلمة مقولة لا ترفع مقضياً ولا تستجلب آتياً.

ثم ركب المتنبي وسار فلقى فاتك فى الطريق، فأراد المتنبي أن ينجو بنفسه، فقال له غلامه: ألسن القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فثبت المتنبي حتى قتله فاتك وقتل ابنه محسد وغلामه.

هكذا كانت نهاية الرجل الأسطورة الذى ملأ شعره الدنيا وشغلت نفسه الكريمة الأبية
الطموحة رجال عصره ورجال كل عصر.

وهكذا توقف القلب العربى الذى كان ممتلئاً حباً للعرب وغيره عليهم بينما بقى شعره
العربى حياً نابضاً، فكان خير ماوصل إلينا من عصر الدويلات.



شعراء قتلهم شعرهم

أبو نُخَيْلَة

مدح أبو نخيلة الخلفاء، ولم ينقطع لمدح خليفة بعينه، وإنما مدح كل من آلت إليه الخلافة، فهو إذن شاعر المنصب لا شاعر الشخصية.

ويكون أمراً طبيعياً أن نتوقع أن يمدح أبو نخيلة بنى أمية حينما كان الأمر بيدهم كما نتوقع أن يمدح بنى العباس حينما يؤول إليهم الأمر ولا مانع من إرضائهم والإعتذار إليهم بهجاء بنى أمية.

إذن هو يقصد في مدحه كرسى الخلافة لا الجالس عليه، يؤكد ذلك أنه وفد على هشام بن عبد الملك وهو لا يعرف عن أخلاقه شيئاً، ومعرفة أخلاق الخليفة من حلم أو بطش، وسخاء أو شح، وإكبار للشعراء أو إصغار لهم، أمر لازم لكل من يفد عليهم لاسيما الشعراء الذين يستطيعون من خلال ذلك أن يجعلوا شعرهم مناسباً لمقتضى الحال، كان على أبى نخيلة إذن أن يسأل عن أخلاق هذا الخليفة الذى يرجو المثول بين يديه ويطمع فى عطاياه، فقصد رجلاً من المقربين للخليفة وسأله عن ذلك، فأجابه الرجل بأن هشاماً شديد البأس، وإذا مدح وخلط مدحه بطلب حرم الطالب، وطلب من أبى نخيلة أن يخلص المدح ولا يقرنه بطلب، وضرب له موعداً يدخله فيه على الخليفة، فلما حان الموعد دخلاً معاً، فسمع شاعراً ينشده قصيدة يمدحه ويكثر المسألة ويلحف فيها حتى بدا فى وجه هشام الغضب والكراهة، فاستأذن أبو نخيلة وقال:

لما أتتني بغية كالشهد والعسل المزوج بعد الوقد^(١)

يا بردها المشتف بالبرد رعت من الجمال مسغد^(٢)

(١) بغية: مطلب ، الوقد: حر الظمأ

(٢) المسغد: الطويل القوى

وقلت للعيسى اعتلى وجدى
فهى تخذ أبرح التخذى^(١)
كم قد تعسفت بهما من نجد
ومجرهد بعد مجرهد^(٢)
إلى أمير المؤمنين المجدى
رب معد وسوى معد^(٣)
فى وجهه بدر بدا بالسعد
أنت الهمام القرم عند الجد^(٤)

فلما انتهى من قصيدته نظر إلى وجه هشام فرآه منطلقاً فهم أن يسأله فتذكر قول صاحبه فسكت وخرج، وبعد أيام أتته جائزة هشام، فدخل عليه بعد ذلك ومدحه فمنحه هشام ثياباً من ثيابه الخاصة وصار من المقربين إليه.

والغريب أن أبا نخيلة غير هذه القصيدة وجعلها فى مدح الخليفة أبى العباس السفاح وهو عباسى وذلك بعد أن زال ملك بنى أمية وحل محله ملك بنى العباس.

لما تغيرت الأمور وأصبحت فى يد العباسيين كان على أبى نخيلة أن يطرق بابهم ويمدحهم، فسكوته عن مدحهم وقد مدح بنى أمية - أو بنى مروان بالتحديد - يعتبر هجاء لهم، وتتحول القضية من مجرد شاعر مداح يقول شعره لكل من يملك القدرة على العطاء إلى قضية ولاء سياسى لبنى أمية، وأبو نخيلة برىء من الثانية كما قلنا.

ولكن كيف يجرؤ أبو نخيلة فى الدخول على أبى العباس السفاح وقد عرف انقطاعه لبنى أمية وكثرة مديحهم؟؟ لقد حُلَّت هذه المشكلة أمام أبى نخيلة بأن صفح أبو العباس

(١) العيسى: الجمال، تخذى: تسرع

(٢) تعسفت: تخطى وضل، مجرهد: وعر

(٣) المجدى: المعطى

(٤) القرم: السيد

عمن هم أعظم جرماً منه، فلما دخل عليه (سلم عليه ودعا له وأثنى عليه واستأذنه في الإنشاد، فقال له: ومن أنت؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين أبو نخيلة، فقال: لحيك الله ولا قرب دارك يانضو السوء! أأست القائل في مسلمة بن عبد الملك بالأمس:

أمسلم يامن ساد كل خليفة ويافارس الهيجا ويقمر الأرض
والله لولا أنى قد أمنت نظراءك لما ارتد إليك طرفك حتى أخضبك بدمك، فقال أبو
نخيلة:

كنا أناساً نهرب الأملاك إذا ركبوا الأعناق والأوراك
قد ارتجينا زمناً أباك ثم ارتجينا بعده أخاك
ثم ارتجينا بعده إياك وكان ماقلت لمن سواك
زوراً فقد كفر هذا ذاك

فتبسم أبو العباس وقال له: أنت شاعر، وطالب خير، ومازال الناس يمدحون الملوك في دولهم، والتوبة تكفر الخطيئة، والظفر يزيل الحقد، وقد عفونا عنك واستأنفنا الصنيعة لك، وأنت الآن شاعرنا، فاتبسم بذلك ليزول عنك ميسم بنى مروان، فقد كفر هذا ذاك كما قلت^(١).

وهكذا نرى أبا نخيلة يدور بمدحه على الخلفاء كدورة الزمن عليهم، وكأن قصائده

(١) الأغاني ج ٢٣ ص ٨١٩

معلقة على كرسى الخلافة يتناولها الجالس عليه بغض النظر عن شخصه وسلوكه. ويبدو أن أبا نخيلة قد أضناه البحث عن عذر يقدمه للعباس عن مدح بنى مروان وكان العذر هو خوفه منهم خاصة ومن الملوك عامة، ثم هو يعتبر قوله فيهم خطيئة لا يمحوها إلا مدح بنى العباس، ومن مدائح لبني العباس والتي يهجو فيها بنى مروان قوله:

| | |
|----------------------------|---|
| حتى إذا ما الأوصياء عسكروا | وقام من تبر النبی جوهر |
| ومن بنى العباس نبع أصفر | ينميه فرع طيب وعنصر |
| أقبل في الناس الهوى المشهر | وصاح في الليل نهار أنور ^(١) |
| أنا الذي لو قيل إنى أشعر | جلى الضباب الرجز المخبر ^(٢) |
| لما مضت لي أشهر وأشهر | قلت لنفسي تزدهي فتصبر ^(٣) |
| لا يستخفك ركب يصدر | لا منجد يمضى ولا مغور ^(٤) |
| وخالفى الأبناء فهى المعسر | أو يسمع الخليفة المطهر |
| منى لئننى كل جنح أحضر | وإن بالأباء غيث يهمر ^(٥) |
| والفيث يرجى والديار تنفر | ما كان إلا أن أتاها العسكر |
| حتى زهاها مسجد ومنبر | لم يبق من مروان عين تنظر ^(٦) |
| لا غائب ولا أنساس حُضر | هيهات أودى المقعم المعقر ^(٧) |

(١) المشهر: المعروف (٢) أشعر: أقول الشعر، الرجز: بحر من بحور الشعر وعليه وزن أبو نخيلة شعره
 (٣) تردى: تستخف (٤) يصدر: يرجع، المنجد: الذى يسير فى النجد وهو المكان المرتفع، المغور: الذى يسير فى الغور وهو المكان المنخفض
 (٥) الجنح: الناحية
 (٦) مروان: آخر ملوك بنى أمية (٧) المقعم: المقتول، المعقر: المنخن جراحاً

وَأَمْسَتْ الْأَنْبَارُ دَاراً تَعْمُرُ وَخَرِبَتْ مِنَ الشَّأَمِ أَدُورُ^(١)

أَيْنَ أَبُو الْوَرْدِ وَأَيْنَ كَوْثَرُ وَأَيْنَ مَرْوَانَ وَأَيْنَ الْأَشْقَرُ

ويبدو أن سلوك أبي نخيلة الشعري كان منبوذاً لمعرفة الناس بتاريخه مع بني مروان وقد أنكره اسحاق بن مسلم الذي كان جالساً عند الخليفة أبي العباس بعد أن سمع هذه القصيدة وقال: «هؤلاء كلهم في حر أمك أبا نخيلة، فأنكر الخليفة عليه ذلك، فقال: إني والله يا أمير المؤمنين قد سمعت منه فيكم شراً من هذا في مجالس بني مروان، وماله عهد، ولا هو بوفى ولا كريم، فبان ذلك في وجه أبي العباس، وقال له قولاً ضعيفاً: إن التوبة تغسل الحوبة، والحسنات يذهبن السيئات، وهذا شاعر بني هاشم وقام فدخل وانصرف الناس ولم يعط أبا نخيلة شيئاً»^(٢).

أبو نخيلة إذن شخصية شعرية مهتزة ومهيأة لأن يصيبها من جراء ذلك شر عظيم، ذلك لأنه لا يقدر للأمور عواقبها الصحيحة، فهو لا يعرف مقابلاً للقصيدة إلا العطاء، ولا يتوقع رد الفعل الطبيعي حينما يتجاوز شعره حدود المدح وطلب العطاء إلى المناذاة بخلع ولى عهد وإقرار البيعة لغيره، وهو في ذلك يجازف مجازفة عظيمة ويغامر بحياته في مقابل بعض الدراهم وإن كثرت.

حينما علم أبو نخيلة بأن أبا جعفر المنصور يريد تولية المهدي العهد بدلاً من عيسى بن موسى بن أخيه، وجدها أبو نخيلة فرصة للتقرب من أبي جعفر من خلال قصيدة يؤيد به

(١) أدور: جمع دار

(٢) الأغاني ص ٨١٣٩

رأيه ويشيعه بين الناس ويطالب بخلع عيسى بن موسى وبالبيعة للمهدي، فقال:

إلى أمير المؤمنين فاعمدى إلى الذى يندى ولا يندى ندى (١)
سبرى إلى بحر البحار المزد إلى الذى إن نفدت لم ينفسد
أو تمدت أشراعها لم يتمد (٢)

ليس ولى عهدنا بالأسمد عيسى فزحلقها إلى محمد
من عند عيسى معهداً عن معهد حتى تودى من يد إلى يد
فقد رضينا بالسلام الأمرد وقد فرغنا غير أن لم نشهد (٣)
وغير أن العقد لم يؤكد فلو سمعنا قولك امدد امدد
كانت لنا كدعة الورد الصدى فناد للبيعة جمعاً نحشد
فى يومنا الحاضر هذا أو غد واصنع كما شئت وزده يزد
ورده منك رداء يرتد فهو رداء السابق المقلد

وقد أشاع أبو نخيلة هذه القصيدة حتى (رواها الخدم والخاصة وتناشدها العامة، فبلغت المنصور، فدعا به، وعيسى بن موسى جالس عن يمينه فأنشده إياها وأنصت له حتى سمعها عن آخرها.

(١) يندى: يجود

(٢) تمدت أشراعها: جف ماؤها

(٣) الأمرد: الصغير الذى لم ينبت له الحية

قال أبو نخله: فجعلت أرى فيه السرور ثم قال لعيسى بن موسى: ولئن كان هذا عن رأيك لقد سررت عمك، وبلغت من مرضاته أقصى ما يبلغه الولد البار السار، فقال عيسى: «لقد ضللت إذأ وما أنا من المهتدين»^(١).^(٢)

هكذا خلع عيسى بن موسى وعقدت البيعة للمهدى بولاية العهد، وكان على عيسى أن ينتقم من ذلك الشاعر الذي تسببت قصيدته في ضياع الخلافة التي عاش عمره ينتظرها.

وقد اشتد عيسى في طلب أبي نخيلة حتى فر إلى خراسان، فأرسل خلفه مولى له يسمى قطريا ومعه عدد من الرجال فلحقوه في طريقه إلى خراسان، فأخذوه قطريا وكتفه وأضجعه وذبحه وسلخ وجهه وألقى جسمه إلى النور ولم يبرح مكانه حتى لم يبق منه إلا عظامه.

(١) سورة الأنعام آية ٥٦

(٢) الأغاني ص ٨١٤٣

شعراء قتلهم شعرهم _____

مزااحم بن عمرو

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه»^(١)، خير له من أن يمتلىء شعراً»^(٢)، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن فهم هذا الحديث على أنه ذم للشعر والشعراء، وتحذير للناس من قول الشعر، فهم بجانب للصواب إلى حد بعيد فالنبي صلى الله عليه وسلم كان محباً للشعر يستنشد أصحابه فينشدون، فيعلق عليه ويستحسنه، وقد كان يحب أن يسمع شعر أمية بن أبي الصلت لما فيه من حكمة ونظرات دينية صائبة على الرغم من أنه لم يدرك الإسلام، كما كان صلى الله عليه وسلم، يتأثر بالشعر المعبر عن مشاعر إنسانية مهذبة وعواطف راقية سامية، فكان كثير الاستماع لشعر الخنساء الذي رثت به أخاها صخرأ، ويستزيدها منه، وليس أدل على إعزاز الرسول للشعر واحتفائه به من وجود حسان بن ثابت المشهور بشاعر الرسول، وقد بنى له الرسول صلى الله عليه وسلم منبراً في المسجد لينشد عليه شعره.

الحديث إذن ينصرف إلى شعر معين، وليس إلى الشعر بعامه، ينصرف إلى الشعر المثير للضغائن والأحقاد، الذي تدور موضوعاته حول النزاعات القبلية أو نهش الأعراض.

ومزاحم بن عمرو رجل كان امتلاء جوفه قيحاً حتى يريه خيراً له من أن يمتلىء شعراً، فقد تسبب شعره في قتله، ثم قتل امرأة كان يهواها وابنتها وزوجها الذي قتله فقتل ثاراً له.

كان مزاحم يهوى امرأة تسمى «حماء»، وكانت زوجة لعبد الله بن عبيد الله وكنيته ابن الدمينه، وكان مزاحم يأتيها ويحدثها مزدرياً زوجها وقومها، غير عابىء بهم، وغير عابىء

(١) يريه: يفتشه

(٢) المجازات النبوة للشرىف الرضى ص ٩٠

بسمعة المرأة التى يهواها والتى فضحها فى قصيدة مفحشة أدت إلى قتله وقتل المرأة، فقد
اشتهر أمره معها ومنعه زوجها من إتيانها واشتد عليها، فلم يجد مزاحم رداً سوى هذه
القصيدة التى يقول فيها:

| | |
|--------------------------------|--|
| ياابن الدمينه والأخبار يرفعها | وخذ التجائب والمحذور يخفيها |
| ياابن الدمينه إن تغضب لما فعلت | فطال خزيك أو تغضب موالها |
| أو تبغضوني فكم من طعنة نفذت | يغذو خلال اختلاج الجوف غاذيها ^(١) |
| جاهدت فيها لكم.. إني لكم أبداً | أبغى معايكم عمداً فأتيها |
| فذاك عندي لكم حتى تغيبني | غبراء مظلمة هارٍ نواحيها |
| أغشى نساء بنى تيم إذا هجعت | عنى العميون ولا أبغى مقاريها ^(٢) |
| كم كاعب من بنى تيم قعدت لها | وعانى حين ذاق النوم حامياها |
| كقعدة الأعسر العلفوف منتجياً | متينة من متين النبل ينجليها ^(٣) |
| وشهقة تعترها عند لذتها | وقول ركبتها قض حين تثنيها ^(٤) |
| علامة كية ما بين عانتها | وبين سبتها لاشل كاويها ^(٥) |
| وتعدل الأير إن زاغت فتبعه | حين يقيم برفق صدره فيها |

(١) يغذو: يسيل دماً
(٢) مقاريها: المقارى جمع مقرة وهى القصعة يقرى فيها الضيف
(٣) الأعسر: الذى يعمل بيساره، العلفوف: الضخم، منتجياً: أى جالس على مكان عالٍ من الأرض، المتينة: تصغير متن وهو الوتر، ينجليها: يشدها
(٤) قض: صوت يحاكى صوت ركبتها حين تثنيها
(٥) سبتها: دبرها

بين الصقوقيين فى مستهدف ومد
ذى حرة ذاق طعم الموت صاليها^(١)
ماذا ترى ابن عبيد الله فى امرأة
ليست بمحصنة فدرأ أجاريها
أيام أنت طريد لانتقاريها
نرى عجوز بنى تيسم ملفعة
شمطاً عوارضها ربدأ دواهيها^(٢)
إذ تجعل الدفنس الورهاء عذرتها
قشارة من أديم ثم تغريها^(٣)
حتى يظل هذان القوم بحسبها
بكرأ وقبل هوى فى الدار هاويها^(٤)

هذه هى القصيدة التى ملأ بها مزاحم الدنيا، وهى قصيدة لا يكتبها عاشق فى أى حال، وإنما الذى يقبل على كتابة قصيدة كهذه، لا يكون إلا رجلاً زنديقاً أهوج غير بصير بالأمور، ولا يضعها فى مواضعها الصحيحة، لقد جعل من الشعر وهو فن الذوق والجمال والتعبير عن المشاعر الإنسانية الراقية، جعل منه وسيلة رخيصة لتصوير سلوكه المخل تجاه امرأة ساقطة.

(لما بلغ ابن الدمينه شعر مزاحم أتى امرأته، فقال لها: لقد قال فيك هذا الرجل ما قال، وقد بلغك، قالت: والله ما رأى ذلك منى قط، قال: فمن له العلامات؟، قالت: وصفهن له النساء، قال: هيهات والله أن يكون ذلك كذلك، ثم أمسك مدة، وصبر حتى ظن أن مزاحما قد نسى القصة، ثم أعاد عليها القول، وأعادت الحلف أن ذلك وصفه له النساء، فقال لها: والله لئن لم تمكنينى منه لأقتلنك، فعلمت أنه سيفعل ذلك، فبعثت إليه وواعدته ليلاً، وقعد

(١) الصقوقي: الصخرة الملساء المرتفعة، الومد: الشديد الحرارة، الحرة: الحر

(٢) عوارضها: جانباً وجهها

(٣) الدفنس: المرأة الرعناء، الورهاء: الحمقاء، تغريها: تلصقها

(٤) الهدان: الأحمق

له ابن الدمينه وصاحب له، فجاءها للموعد، فجعل يكلمها وهى مكانها، فلم تكلمه، فقال لها: يا حياء ما هذا الجفاء الليلة؟ فقال له ابن الدمينه بصوت ضعيف: ادخل، فدخل، فأهوى بيده ليضعها عليها، فوضعها على ابن الدمينه، فوثب عليه هو وصاحبه وقد جعل له حصى فى ثوب، فضرب بها كبده حتى قتله، وأخرجه فطرحه ميتاً^(١).

إن موقف ابن الدمينه يؤكد صحة العلامات التى وردت فى القصيدة، وهى علامات لانعرفها المرأة فى المرأة، ولكن يعرفها الرجل فى وضع خاص، لا يكون إلا بين رجل وامرأة، فحماء إذن امرأة ساقطة، أما موقف ابن الدمينه فلا يخلو من سلبية ومن جبن يدلان على قصور فى تقدير قيمة العرض والشرف، فلا تتخيل أن رجلاً عربياً يسمع شعراً كهذا فى امرأته فلا يكون منه إلا أن يستجوبها ثم يصبر مدة حتى ينسى غريمه القصص، إن الفطرة السليمة تبادر بهذا السؤال: كيف كان حاله خلال هذه المدة التى صبرها؟ وما كانت حاجته إليها؟ ألم يكن الأجدر به أن يخرج على مزاحم شاهراً سيف، فيقتله ويثأر لعرضه المتهتك وكرامته الملوثة؟، إن الطريق التى اختارها لقتل غريمه لا تكون إلا من سارق أو قاطع طريق، أما الثأر للعرض فلا يكون إلا كما قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وأى ضاحك هذا الذى اصطفاه لمساعدته فى مهمته العظمى؟، لا يمكن أن نتصور أن هذا الصاحب كان موجوداً بالصدفة، وإنما استدعاه ابن الدمينه ليكون محملاً ومشجعاً

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٧ وما بعدها

ومعنيماً إذا لزم الأمر، وقد لزم الأمر فعلاً، فلم يقم ابن الدمينه وحده بقتل مزاحم، وإنما وثب عليه هو وصاحبه.

ولعل ابن الدمينه قد أدرك حرج موقفه، وأدرك أن العرب لائمه لامحالة فقد استتر فيما لا يصح الاستتار فيه، واستخفى حيث لا يجب الاستخفاء، لذلك نراه يحاول إسعاف سمعته بقصيدة يهجو فيها سلول - قبيلة مزاحم - ويعرض بنسائهم، يقول ابن الدمينه:

| | |
|-----------------------------|--|
| قالوا هجتك سلول اللؤم مخفية | فاليوم أمجو سلولاً لأخانيها |
| قالوا هجاك سلولي فقلت لهم | قد أنصف الصخرة الصماء راميها |
| رجالهم شر من يمشى ونسوتهم | شر البرية واست ذل حاميها |
| يحككن بالصخر أسماها بها نقب | كما يحك نقاب الجرب طاليها ^(١) |

وقال أيضاً واصفاً دخول مزاحم عليه:

| | |
|-------------------------------|--|
| لك الخير إن واعدت حماء فالقها | نهاراً ولا تدلج إذا الليل أظلم |
| فإنك لا تدري أبيضاء طفلة | تعانق أم ليشاً من القوم قشعما ^(٢) |
| فلما سرى عن ساعدي ولحيتي | وأدرك أني لست حماء جمجما ^(٣) |

وكان دور حماء، وقد وضع ابن الدمينه على وجهها وسادة من قطيفة وجلس عليها حتى قتلها، فلما ماتت قال:

(١) النقب: الجرب

(٢) القشع: المعجوز

(٣) جمجم الرجل: أي لم يستطع الكلام

إذا قعدت على عرنين جارية فوق القطيفة فادعوا الى بحفاه
 وبينما هو فى حالة هستيرية جمعت بين ألم الخيانة ولذة الانتقام فإذا بطفلة له من حماء
 تبكى، فضرب بها الأرض فقتلها ثم قال: لاتخذن من كلب سوء جرواً.
 ولم يكن للأمر أن ينتهى بعد كل هذا، فالقبيلتان - سلول وخشم - قريبتا العهد
 بالجاهلية، ولا يمكن لإحدهما السكوت على قاتل مادام حياً، ومادام ابن المدينة حياً فلا بد
 لسلول من قتله.
 كانت والدة مزاحم من خشم - قوم ابن المدينة - ولكن المقتول ابنها ولابد من الثأر له
 أيا كان قاتله، ولاظن أن العصبية القبلية كانت تتراجع أو تضعف إلا فى موقف كهذا،
 وكانت المرأة شاعرة، فقال ثرئى ابنها وتحرض مصعباً وجناحاً أخويه:

| | |
|-------------------------------|----------------------------|
| بأهلى ومالى بل بجل عشيرتى | قتيل بنى تيم بغير سلاح (١) |
| فهلأ قتلتكم بالسلاح ابن اختكم | فتظهر فيه للشهور جراح |
| فلا تطمعوا فى الصلح مادمت حية | ومادام حياً مصعب وجناح |
| ألم تعلموا أن الدوائر بيننا | تدور وأن الطالبين شحاح |

وأكثرت أم مزاحم من تحريض مصعب على ابن المدينة، وقالت له: (اقتل ابن المدينة،
 فإنه قتل أخاك وهجا قومك، وذم أختك، وقد كنت أعذرک قبل الآن لأنك كنت صغيراً وقد

(١) فى البيت عيب من عيوب القافية يسمى «الإقواء» وهو اختلاف حركة الحرف الأخير فى البيت عن بقية أبيات
 القصيدة

كبرت الآن، فلما أكثر عليه خرج من عندها، وبصر بابن الدميثة واقفاً ينشد الناس، فغدا إلى جزار فأخذ شفرته وعدا على ابن الدميثة فجرحه جراحتين، فقيل: إنه مات لوقته، وقيل: بل سلم تلك ومربه مصعب بعد ذلك وهو في سوق العبلاء ينشد، فعلاه بسيفه حتى قتله^(١).

ألم يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير من أن يمتلىء شعراً».

(١) الأغاني ص ٦٣٧٩

شعراء قتلهم شعرهم

طرفة بن العبد

فى الجزيرة العربية كان الشعر طبيعة فى الناس إبداعاً وفهماً وتذوقاً وحفظاً ورواية، ويندر أن يوجد عربى واحد فى هذا العصر لم يكن له شعر، قليل أو كثير، ردىء أو جيد.

ويدخل هذا الكلام مجال التصديق حينما نشبه الشعر فى الجاهلية وفى الجزيرة العربية بالمرح والفكاهة وخفة الظل فى مصر، فأهل مصر يتميزون بقدرتهم على ابتكار الفكاهة وخلق الأجواء المرحّة، وهم فى ذلك - لاشك - يتفاوتون، لكن تجمعهم هذه القدرة.

ليس غريباً إذن أن يطلع علينا تاريخ الأدب الجاهلى بشاعر شاب يقتحم علينا العقد الأخير من القرن العشرين، بقصيدة كتبت بماء الذهب فى نسيج من صنع أقباط مصر وعلقت بأستار الكعبة، فكانت واحدة من المعلقات التى تعتبر أنفس ما أبدعه العقل فى تلك الفترة التى سبقت ظهور الإسلام.

هذا الشاعر يسمى «عمرو بن العبد» و«طرفه» لقبه، وعلى الرغم من حداثة سنه - فقد قتل وهو فى السادسة والعشرين - إلا أنه استطاع أن يشمخ بقامته أمام كبار شعراء عصره فتفوق عليهم بحكمة كانت وليدة ظروفه الخاصة التى ملأته مرارة وأسى، فقد مات أبوه وتركه غلاماً صغيراً، وأكل أعمامه ميراثه عن أبيه، فنشأ فقيراً مع حبه الشديد للإنفاق على المتع والملاذات حتى ضاع ماله فاضطر إلى أن تمتد يده لمال أقاربه فنبذوه وطردهوه.

ولو لم يحمل التاريخ لنا وصفه بالفقر لعرفنا ذلك من شعره، فله شعر كثير يذم فيه الفقر ويصف حال الفقير، وقد تخلى الناس عنه وضاعت به الدنيا وأصبح يتخبط فى أمور حياته،

وقد نفر منه أصدقاؤه فإن غاب عنهم لم يسألوا عنه ولم يشفقوا عليه، وإن آب لم يفرحوا
برجوعه أو يحفلوا به، يقول:

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| إذا قل مال المرء قل بهاؤه | وضاقت عليه أرضه وسماؤه |
| وأصبح لا يدري وإن كان حازماً | أقدامه خير له أم وراؤه |
| ولم يمشى فى وجه من الأرض واسع | من الناس إلا ضاقت عنه فضاؤه |
| فإن غاب لم يشفق عليه صديقه | وإن آب لم يفرح به أصفياؤه |
| وإن مات لم يفقد ولى ذهابه | وإن عاش لم يسرر صديقاً لقاؤه |
| إذا تم عقل المرء تمت أموره | وتمت أياديه وطواب ثناؤه |
| وإن لم يكن عقل تبين نقصه | وإن كان مفضالاً كثيراً عطاؤه |
| إذا قل مال المرء قل صديقه | ولم يجل فى قلب الخليل إخاؤه (١) |
| إذا قل مال المرء لم يرض عقله | بنوه ولم يفضب له أولياؤه |
| وأصبح مردوداً عليه كلامه | وإن كان منطيقاً قليلاً خطاؤه (٢) |

هذه الأبيات بما تحتوى عليه من مرارة وأسى لا يمكن أن تصدر إلا عن رجل فقير، أراه
الفقر ضيق الأرض والسماء وخيانة الصديق وعدم مبالاة الأحباب بذهابه أو رجوعه، حتى

(١) يجل: يظهر

(٢) منطيقاً: بليغاً

أبناءؤه ربما لا يرضون به أباً وأقرباؤه لا يغضبون لمكروه أصابه، وأصبح كلامه مردوداً غير مسموع على الرغم من بلاغته وفطنة قائله.

ويبدو أن الفقر كان الهم الأول الذي يعاينه طرفه، فكان يتمنى أن يكون واحداً من الأغنياء الذين يتمتعون بالمال والولد، يقول:

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد^(١)

فأصبحت ذا مالٍ كثير وعادنى بنون كرام سادة لمسود^(٢)

(قال أبو عبيدة: فقال عمرو بن مرثد لما سمع قول طرفه: ابعثوا إلى طرفه فليأتنى، فأتاه فقال له: أما الولد فالله يعطيكه، وأما المال فلا تبرح حتى تكون أوسطنا مالاً، ثم أمر بنييه وهم سبعة أن يعطوه عشراً عشراً من الأبل، حتى أعطاه بنو عمرو سبعين بعيراً، ثم قال لثلاثة من بنى أبنائه أعطوه عشراً عشراً فأعطوه ثلاثين، فبقى الأبناء يفخر أبناءؤهم الذين أعطوا طرفه على سائر الأبناء الذين لم يعطوه، يقولون: جعلنا جدنا مثل بنييه^(٣)).

ومن شعر طرفه نلاحظ علاقته المتوترة بأبن عمه «مالك» الذى كان كبير القوم، والذى كان دائم اللوم على طرفه وسلوكه، بينما يسعى لاسترضائه، حتى يئس منه وعده من الأموات.

(١) قيس بن خالد وعمرو بن مرثد رجلان غنيان من قوم طرفه

(٢) عادنى: أثنى

(٣) ديوان طرفه بن العبد تحقيق يوسف الأعلام الشنتمري ص ٣٧

يقول طرفة:

| | |
|-----------------------------|---|
| فمالي أرائي وابن عمي مالكا | متى أدن منه يثأ عني ويعد |
| يلوم وما أدري على ما يلومني | كما لامني في الحى قرط بن أعبد ^(١) |
| وأياسني من كل خير طلبته | كأنا وضعنا على رسم ملحد ^(٢) |
| فلو كان مولاي امرأ هو غيره | لفرج كربى أو لأنظرني غدى |
| ولكن مولاي امرؤ هو خانقي | على الشكر والتسأل أو أنا مفتد |
| وظلم ذوى القربى أشد مضاضة | على المرء من وقع الحسام المهند ^(٣) |

هكذا كان طرفة كثيراً ما يحاول التقرب إلى ابن عمه الذى كان دائماً يقابل اقترابه بالابتعاد، ويبدو أن لوم طرفة لم يكن مقصوداً على ابن عمه مالك، وإنما كان لاثموه كثيرين منهم قرط بن أعبد الذى ذكره فى قصيده.

وبعد كل محاولات التقرب والمصالحة بين طرفة ومالك، يئأس طرفة ويترك ابن عمه تركاً نهائياً لارجوع فيه، وكأنه قد مات ودفن، ثم يقدم تعليلاً لهذا الاعتقاد، فلو كان ابن عمه رجلاً غير مالك لفرج كربيه وأدى عنه دينه أو على الأقل أنظره إلى وقت قريب يكون فيه قادراً على أداء الدين، لكنه شدد عليه الخناق حتى اضطره إلى مدح الناس وشكرهم وسؤالهم العطايا، ثم يقرر حقيقة تشع مرارة وأسى فظلم ذوى القربى أشد حرقة وأوقع المأ

(١) قرط بن أعبد: رجل من حى طرفة

(٢) رسم ملحد: يعنى القبر

(٣) مضاضة: حرقة، الحسام المهند: السيف المصنوع فى الهند

من السيف الحاد البتار، حيث لا يتوقع الإنسان هذا الظلم فلا يتوقى منه، كما لا يكون جاداً في الانتصار لنفسه، فإذا جد وانتصر فإنه لا يكون سعيداً بهذا الانتصار الذي يقع على أقربائه الذين يحبهم ويتمنى لو بادلوه حباً بحب.

الشعر إذن كان الناي الذي ينث فيه طرفه زفرات الأسى التي تتوهج في صدره، فتخرج لحوناً مطربة عذبة قوية التأثير.

وكثيراً ما كان شعره يشغله عن رعى إبله مع أخيه معبد الذي كان يلومه على ترك إبله وماله إلى الشعر، وكان يقول له: لم لاتسرح في إبلك كما كنت تفعل، أترى أن شعرك يردها إن أخذت؟ فقال طرفة: فإني لأخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعري يردها. فتركها فأخذها ناس من مضر فرحل طرفة عن اليمامة وادعى جوار عمرو بن هند ملك الحيرة.

وقد وفد على عمرو بن هند مع خاله الملتمس، (فنادمهما الملك وأكرمهما وبقيا عنده زماناً، ويقولون: إن طرفة كان غلاماً معجباً، تائهاً، فبينما كان يشرب يوماً بين يدي الملك إذ أشرفت عليه أخته فرآها طرفة، فقال فيها بيتين من الشعر، فنظر إليه عمرو نظرة كادت تقتله من مجلسه، وكان عمرو لا يتسم ولا يضحك، وكانت العرب تسميه «مضرط الحجارة» لشدته، وكانوا يهابونه هيبة شديدة، فقال الملتمس لطرفة حين قاموا: «يا طرفة إنني أخاف عليك من نظرتك إليك»، فلم يكثر بكلامه ثم جعلهما عمرو بن هند من صحابة أخيه قابوس، وكان يرشحه للملك، وأمرهما بلزومه، وكان قابوس شاباً يعجبه الزهو، وكان يركب يوماً في الصيد، فيركض يتصيد، وهما معه يركضان، حتى يرجعا عشة ولقد لعبا. فيكون قابوس من الغد للشراب، فيقفان في باب سراحه إلى العشى، وكان قابوس

يوماً على الشراب، فوقفا ببابه النهار كله، ولم يصلإ إليه، فضجر طرفه وهجا عمرأ وأخاه^(١).

لكن الهجاء لم يصل إلى أسمع عمرو بن هند إلا عن طريق رجل يسمى «عبد عمرو بن بشر» الذى هجاه طرفه أيضاً، فاشتد حنقه عليه ووشى به عند عمرو بن هند، وكان مما قاله فى هجاء عبد عمرو قوله:

ولاخير فيه غير أن له غنى وإن له كشحاً إذا قام أهضما^(٢)

كان السلاح فوق شعبة بانه ترى نفخاً ورد الأسرة أسحما^(٣)

وطرفة فى هذين البيتين ينزع كل الفضائل عن عبد عمرو ولايبقى له إلا غناه ووصفه بالصفات التى يتغزل بها فى النساء، فله خصر ضامر إذا قام تشنى كأنه شجرة البان الرخوة اللينة الناعمة، والسلاح الذى يحمله يكاد يشنيه، وترى له بروزات فى جنبات جسمه وهو فى تشنى لحمه يكون مثيراً.

وكان عبد عمرو بن بشر مع عمرو بن هند فى رحلة صيد، وقد جلسوا لياكلوا صيدهم، وجلس عبد عمرو يقدم الشواء لعمرو فأبصر خصره من تحت القميص الضيق، فقال له عمرو بن هند: يا عبد عمرو، لقد أبصر طرفه حسن كشحك، ثم تمثل حتى قال:

ولاخير فيه غير أن له غنى وإن له كشحاً إذا قام أهضما

(١) ديوان طرفه تحقيق الأستاذ على الجندى نقلاً عن نصوص من العصر الجاهلى للدكتور جودة أمين ط. الفجر الجديد

(٢) الكشح: الخصر، الأهضم: الضامر

(٣) البانة: واحدة شجر البان اللين، الأسحم: الأسود

فغضب عبد عمرو بما قاله عمرو بن هند وأنف، فقال: لقد قال في الملك أقبح من هذا، قال عمرو وما الذي قال؟ فندم عبد عمرو على الذي سبق منه، وأبى أن يسمعه، فقال عمرو: أسمعني وطرفة آمن، فأسمعه القصيدة التي هجاه فيها^(١). ومنها قوله:

ليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حول قببنا تخور^(٢)

من الزمرات أسبل قادمها وضربتها مركنة درور^(٣)

يشاركنا لنا رخلان فيها وتعلوها الكباش فما تنور^(٤)

لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير^(٥)

في هذه الأبيات يرى طرفه عمرو بن هند ملكاً لا يصلح للملك وخير منه نعمة تخور وإن كانت قليلة الصوف فرما كان لبها كثيراً يكفي رضيعها وحالبها، وهي لا تنفر من الكباش فقد اعتادت أن يقع عليها الذكور، ثم يذكر قابوساً أخا عمرو فيصف ملكه بالحمق والبله.

(فسكت عمرو بن هند على ذلك وقر في نفسه، وكره أن يعجل عليه لكان قومه، فأضرب عنه، ثم لم يزل يطلب غرته والاستمكان منه حتى أمن طرفه ولم يخفه على نفسه وظن أنه قد رضى عنه، فقدم هو والمتمس على عمرو بن هند، وكان المتمس قد هجا عمراً متعرضاً لفضله ومعروفه، فكتب لهما إلى عامله على البحرين

(٢) الرغوئ: النعجة الموضع

(١) المصدر السابق ص ٨٦

(٣) الزمرات: القليلات الصوف، الضرة: لحم الضرع، مركنة: لها أركان وجوانب، الدرور: كثيرة در اللبن.

(٤) رخلان: مفردا رخل وهي الأنثى من أولاد الضأن، تنور: تنفر

(٥) قابوس بن هند: أخو عمرو بن هند، نوك: حمق

وهجر، وقال لهما: انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما.

فخرجا فلما هبطا النحو قال الملتمس: ياطرفة إنك غلام حديث السن والمالك من قد عرفت حقه وغدره، وكلانا قد هجاه ولست آمننا أن يكون قد أمر فينا بشراً، فهلم ننظر مافي كتابنا هذا، فإن يكن أمر خير مضينا به وإن تكن الأخرى لم نهلك أنفسنا، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك، وعدل الملتمس إلى غلام من غلمان الحيرة عبادى، فأعطاه الصحيفة فقرأها فقال: ثكلت الملتمس أمه، فانتزع الصحيفة من الغلام واكتفى بذلك من قوله، واتبع طرفة فلم يلحق به، وألقى الصحيفة فى نهر الحير ثم خرج هارباً إلى الشام، ثم سار طرفة حتى قدم على عامل البحرين وهو بهجر فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقرأه، فقال: هل تعلم ماأمرت فيك؟ فقال: نعم، أمرت أن تجيئني وتحسن إليّ، فقال لطرفة: إن بينى وبينك خؤولة أنا راع لها، فأهرب من ليلتك قبل أن تصبح ويعلم الناس بمكانك، فإننى قد أمرت بقتلك، فقال له طرفة: اشتدت عليك جائزتي فأحييت أن أهرب وأن أجعل لعمرو على سبيلاً كأننى قد أذنبت ذنباً، والله لأفعل ذلك أبداً، فلما أصبح أمر بحبسـه وتكرم عن قتله، وكتب إلى عمرو بن هند: ابعث إلى عمك غيرى فإننى غير قاتل الرجل، فبعث إليه عمرو بن هند رجلاً من بنى تغلب واستعمله على البحرين، وكان رجلاً شديداً شجاعاً وأمره بقتل طرفة فقتله^(١).

(١) ديوان طرفة تحقيق يوسف الأعلام الشنتمرى ص ٩٩

وقد رثته أخته بقولها:

عددتنا له ستا وعشرين حجة فلما توفاهما استوى سيداً ضخماً

فجمعنا به لما رجونا إيا به على خير حالٍ لاوليداً ولا قحماً^(١)

وهكذا قتل طرفة الشاعر العربي الشاب الذي استطاع أن يخلد اسمه بشعره الذي كان
الركن الندي الظليل في حياته، يأوى إليه هرباً من جفاف مشاعر أهله تجاهه، وحلمه الذي
يفر إليه من مرارة واقعه الملىء بالأسى.

(١) القحمة: هو الذي يقحم نفسه في الأمور

شعراء قتلهم شعرهم

أعشى همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وكنيته «أبو المصباح»، وهمدان جده الأهل ولقب بالأعشى لضعف بصره.

كان الأعشى فقيهاً وقارئاً للقرآن الكريم، ثم تحول إلى الشعر بعد أن رأى في منامه أنه دخل بيتاً فيه حنطة وشعير، فقيل له خذ أيهما شئت، فأخذ الشعير، فقص رؤياه على صهره الشعبي وكان فقيهاً أيضاً، فقال له: إن صدقت رؤياك تركت القرآن وقلت الشعر، فكان كما قال.

منذ ذلك الحين أصبح الأعشى من شعراء الكوفة الفصحاء، حتى اعتبره الأصمعي من الفحول، وقد عاصر الدولة الأموية، وكان شاعراً مواكباً للأحداث منغمساً فيها، ذا موقف من الدولة وسياستها، فكان لساناً لاذعاً سليطاً عليها، يؤلب أهل الكوفة على الحجاج بن يوسف الثقفي، وذلك عندما خرج ابن الأشعث على الحجاج وحشد معه أهل الكوفة، فلم يبق أحد من وجوههم إلا خرج معه لثقل وطأة الحجاج عليهم، فكان الأعشى على رأس الجيوش فارساً، كما كان شاعراً محملاً للجنود كمن يقوم على أمر الشئون المعنوية في الجيوش الحديثة، ولم يسلم الحجاج رغم غلظته ومحبته للدماء من هجاء الأعشى فضلاً عن أن الأعشى كان يمدح ابن الأشعث وهو أعدى أعداء الحجاج وأجراً الخارجين عليه، وهذه وحدها كفيلة بإثارة حفيظة الحجاج ضد الأعشى وجعله من المطاردين المطلوبة دماؤهم وما أسعد الحجاج بذلك وهو الذي كان يتفاخر بحبه للقتل وإراقة الدماء. ومن هجاء الأعشى للحجاج بن يوسف الثقفي قوله:

بالسيد الفطريف^(١) عبد الرحمن

لما سمونا للكفور الفتان

سبحار بسمع كالقطا من قحطان ومن معد قد أنى ابن عديار
أمكن زبى من ثقيف همدان يوماً إلى الليل يسلى ماكان
إن ثقيفاً منهم الكذابان كذا بها الماضى وكذاب ثان

وقوله:

يا ابن الأشج^(١) قريع كندة لأبالي فيك عتبا
أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كعباً
نبئت الحجاج بن يوسف خر من زلق^(٢) فتبا
فانهض فدبت لعله يجلو بك الرحمن كرباً
وابعث «عطية»^(٣) فى الخيول يكهن عليه كبا

من هاتين المقطوعتين تتضح لنا صورة الأعشى كشاعر هجاء وتكون أكثر جلاءً فهو يهجو الذراع الباطشة للدولة الأموية وهو الحجاج وهو من هو، فكان الأولى - لو كان الأعشى شاعراً مرتزقاً - أن يمدح هذه الشخصية ذات الشأن العظيم فى الدولة ويحصل على الأموال والعطايا حيث لم تكن الدولة الأموية بالبخيلة فى هذا الشأن، وإنما كانت تصطنع الشعراء وتجندهم لخدمة دعواها، فهي حينما تشتري لسان شاعر معين فهي تشتري قبيلته كلها، فالشاعر ليس شخصاً منعزلاً عن قبيلته، وإنما هو لسان حالها أو المتحدث

(١) الأشج: يقصد عبد الرحمن بن أشعث

(٢) زلق: المكان الذى لا يثبت عليه قدم

(٣) عطية: هو عطية بن عمرو العبدي قائد جيوش عبد الرحمن بن الأشعث

الرسمى باسمها، وقد كان فى إمكان الأعشى أن يفعل ذلك، لكنه - فيما نعتقد - كان شاعراً ذا أيديولوجية وذا موقف محدد من هذه السياسات لذلك كان يرتزق بشعره بعيداً عن هذه المنطقة، فإذا ما دخلها هو شاعر لاتنقصه النزاهة والجرأة وحرية الرأى فيمدح أعداء الحجاج ويهجو الحجاج بما يثير حفيظته، ومن مدائحه فى ابن الأشعث قوله:

| | |
|------------------------------|---|
| كم من أب لك كان يعقد تاجه | بجبين أبلج مفوكٍ صنيديد |
| وإذا سألت المجد أين محله | فالمجد بين محمد ^(١) وسعيد ^(٢) |
| بين الأشج وبين قيس باذخ | بخ ^(٣) بخ لوالده وللمولود |
| ماقصرت بك أن تنال مبدى العلا | أخلاق مكرمة وإرث جدد |
| قرم إذا سامى القروم ترى له | أعراق مجد طارق ^(٤) وتليد |
| وإذا دعا لمظيمة حشدت له | همدان تحت لوائه المعهود |
| يمشون فى حلق الحديد كأنهم | أسد الإباء سمعن زار أسود |
| ماإن نرى قيساً يقارب قيسكم | فى المكرمات ولا ترى كسعيد |

من الطبيعى إذن أن يسكن الأعشى رأس الحجاج ويقض مضجعه ويؤرقه بعد ذلك الهجاء المقلد الذى جعل أهل العراق يتجراؤون على الحجاج ويخرجون لحربه، وبعد ذلك مدحه للأشعث الذى جمع القوم حوله فأزروه وناصروه وخرجوا معه لقتال

(١) محمد: هو أبو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

(٢) سعيد: هو ابن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وعلى ذلك يكون المجد مقصوداً به عبد الرحمن نفسه لأنه

بين ابنه وأبيه

(٣) بخ: كلمة استحسان ومدح

(٤) الطارف: المستحدث والتليد عكسه

الحجاج.

يروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغانى» (لما أتى الحجاج بن يوسف الثقفى بأعشى همدان قال: الحمد لله الذى أمكن منك، ألت القائل:

لما سمونا للكفور الفتان الأبيات^(١)

أولست القائل:

يا ابن الأشج قريع كندة لأبالي فبك عتبا

..... الأبيات^(٢)

كلا ياعدو الله، بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذى خر من زلق. فتب وحر وانكب، ومالقى ما أحب، ورفع بها صوته وأريد وجهه واهتز منكبا، فلم يبق أحد فى المجلس إلا أهمته نفسه وارتعدت فرائضه، فقال له الأعشى: بل أنا القائل أيها الأمير:

| | |
|--------------------------|--------------------------------|
| أبى الله إلا أن يتم نوره | ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا |
| وينزل ذلاً بالعراق وأهله | كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا |
| ومالبت الحجاج أن سل سيفه | علينا قولى جمعنا وتبددا |
| ومازاحف الحجاج إلا رأيت | حساما ملقى للحروب معودا |
| فكيف رأيت الله فرق جمعهم | ومزقهم عرض البلاد وشردا |

(١ و ٢) ارجع للأبيات فى أول الفصل من هذه الدراسة

| | |
|---------------------------------|---------------------------------|
| بما نكثوا من بيعة بعد بيعة | إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا |
| وما أحدثوا من بدعة وعظيمة | من القول لم يصعد إلى الله مصعدا |
| ليهنأ أمير المؤمنين ظهوره | على أمة كانوا بغساة وحسدا |
| وجدنا بنى مروان خير أئمة | وأعظم هذا الخلق حلما وسوددا |
| وخير قريش من قريش أرومة | وأكرمهم إلا النبی محمدا |
| إذا ماتدبرنا عواقب أمرنا | وجدنا أمير المؤمنين المسددا |
| سيغلب قوماً غالبوا الله جهرة | وإن كايده كان أقوى وأكيدا |
| كذلك يضل الله من كان قلبه | ضعيفا ومن والى النفاق والحداد |
| تعطف أمير المؤمنين عليهم | فقد تركوا أمر السفاهة والردى |
| لعلهم أن يحدثوا العام توبة | وتعرف نصحا منهم وتوددا |
| لقد شمت يابن الأشعث العام مصرنا | فظلوا وما لاقوا من الطير أسعدا |
| كما شاءم الله النجير وأهله | بجذك من قد كان أشقى وأنكد |

فقال من حضر من أهل الشام: فقد أحسن أيها الأمير، فخل سبيله، فقال: أظنون أنه أراد المدح، لا والله! لكنه قال هذا أسفاً لغلبتكم إياه وأراد به أن يحرض أصحابه، ثم أقبل عليه فقال له: أظننت ياعدو الله أنك تخذعنى بهذا الشعر وتنفلت من يدي حتى تنجوا! ألسنت القائل ويحك!

وإذا سألت: المجد أين محله
فالمجد بين محمد وسعيد
بين الأغـر وبين قيس باذخ
بخ بخ لوالده وللمـولود
والله لا يخبـخ بعدها أبداً. أولست القائل:
وأصابنى قوم وكنـت أصيـبهم
فاليوم أصبر للزمان وأعرف
كذبت والله، ما كنت صبوراً ولا عروفاً، ثم قلت بعده:

وإذا نصـبك من الحوادث نكـبة
فأصبر فكل غيابة ستكشف
أما والله لتكون نكبة لا تنكشف غيابتها عنك أبداً، يا حرسى، اضرب عنقه، فضرب عنقه،
فكان أعشى همدان قتيل الحجاج أو قل قتيل شعره.

بعد ما قلناه عن نزاهة الأعشى وموقفه من الدولة الأموية يحق له علينا أن نقف وقفة مع
القصيد التي مدح بها الحجاج، فليس مما يقبله العقل أن يكون الأعشى مخلصاً على مدحة
للحجاج بعد ذلك التهاجي الذي أدى إلى مقتله، ولعل الأعشى كان قد أعد هذه القصيدة
تخسباً لموقف كهذا، فليس من الطبيعي أن يرتجلها في مثل هذه الظروف، وليست سرعة
البديهة وحدها كافية لإخراج مثل هذه القصيدة وفيها ما فيها من الغمز والهجاء المرتدى
ثياب المدح كما سيتضح عند الوقوف على بعض معانيها، فمثلاً في قوله:

أبى الله إلا أن يتم نوره
ويطفئ نار الفاسقين فتخمد

في هذا البيت سخرية خفية لا يدركها إلا ذو بصر بالشعر ومعانيه وطرائقه، فالله سبحانه
قد أتم نوره بالإسلام الذي جاء على يد رسوله صلى الله عليه وسلم، وليست البشرية في
حاجة لبنى أمية الذين اغتصبوا الخلافة وحولوها إلى ملك يتوارثونه، لكى يتم بهم نور الله

فى الأرض، كذلك قوله:

وما زاحف الحجاج إلا رأيتـه حساماً ملقى للحروب معودا

فظاهر البيت يصف الحجاج بالشجاعة، لكن البيت يعرض به ويصفه بأنه فقط مجرد سيف فى يد الدولة الأموية تطعن به كيف تشاء، وقوله «ملقى» فيه مافيه من السخرية، فكأن الحجاج شىء حقير يلقى به، فإذا جاء بخير فهو للدولة وإن هلك لم تخسر الدولة بهلاكه شيئاً. كذلك قوله:

بما نكثو من بيعة بعد بيعة إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غداً

إشارة إلى عدم استقرار عرش الدولة الأموية وإلى نقض الناس البيعة لهم لأنهم مغتصبو الخلافة غير مستحقىها.

ثم هو يشير بمهارة إلى أن الناس حينما يبايعو اليوم للخلافة الأموية تحت وطأة الحرب فإنهم سريعاً ما ينقضون بيعتهم لأنهم غير راضين عنها.

وكذلك قوله:

وما أحدثوا من بدعة وعظيمة من القول لم تصعد إلى الله مصعدا

فمن الذى أحدث هذه البدعة، أهم الذين رفضوا أن يبايعوا مغتصب الخلافة أم الذى اغتصب الخلافة وحولها إلى ملك يرثه الابن عن أبيه، وهذا ما لا يقبله الله، فالبيت إذن غمز وتعرض بالبدعة التى استحدثها الأمويون.

أما قوله:

وجدنا بنى مروان خير أئمة وأعظم هذا الخلق حلماء وسوددا

وخير قریش فی قریش أرومة واکرمهم إلا النبی محمداً

ففى كلمة «أئمة» تهكم شديد بالأمويين لأنهم ملوك وليسوا أئمة وتفضيلهم على الخلق أيضاً بقوله: «وأعظم هذا الخلق» مبالغة مقصودة من قبل الأعشى ليفهم السامع المتبصر أنه إنما أراد الهجاء، وتأمل معنى تفضيله لهم على قریش جمعاء باستثناء الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد فضلهم على كرام الصحابة والمسلمين السابقين للإسلام وذلك تعريض واضح وقوله: كذاك يضل الله من كان قلبه ضعيفاً ومن والى النفاق والحداد

فى هذا البيت أيضاً دعاء على الحجاج وعلى الدولة الأموية، فالأعشى أطلق البيت ولم يحدده وإنما قال: «من كان»، ومن يكون قلبه ضعيفاً غير الحجاج الذى باع آخرته بدنياه غيره فما ربحت تجارتها. وقوله:

لقد شمت يابن أشعث العام مصرنا فضلوا ومالاقوا من الطير أسعدا

هذا البيت يحمل استخفافاً شديداً بعقلية الحجاج، فهو أمامه يهجو ابن الأشعث الذى طارت مدائحہ فيه كل مطار، فهو يفعل ذلك أمام الحجاج وكأنه يخاطب طفلاً صغيراً يمكن أن يسترضيه بسب أو بضرب طفل آخر أغضبه أو أخذ منه لعبته.

يمكننا بعد هذه الوقفة السريعة مع بعض أبيات القصيدة أن نتيقن من نزاهة الأعشى وثمسه بمبادئه حتى آخر لحظة فى حياته، فكان قتيل شعره الذى كان يعبر به عن قضيته وذاته فى مواجهة أكبر الأشرار وهو الحجاج بن يوسف الثقفى.

شعراء قتلهم شعرهم

وضاح اليمن

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال بن داد بن أبي جمد، وسمى «وضاح» لجماله، وقد اختلف العرب قديماً في نسبه فمنهم من يقول إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع وهز لنصرة سيف بن ذي يزن على الحبشة، ومنهم من يقول إنه من آل خولان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم الذي ينتهى نسبه إلى يشجب بن يعرب، ولأن الرجل لم يمارس ولم يتهم ولم يتصف بالشعوبية فلا نرى حاجة لتقص نسبه ومحاولة ترجيح أحد الرأيين على الآخر، وإن كان رأى القائل بعروبة نسبه له مايقويه على رأى الآخر، فله بيتان يتغزل فيهما ببنات عمه فيقول:

إن قلبى معلق بنساء واضحات الحدود لسن بهجن

كان الوضاح شديد الجمال كما قلنا وكا أحد ثلاثة من العرب يردون المواسم مقنعين يسترون وجوههم خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء لجمالهم، وهؤلاء الثلاثة هم المقنع الكندى، وأبو زيد الطائي، ووضاح اليمن.

ولاشك أن هذا الجمال كان بمثابة تصريح المرور لدى الوضاح فكان يهوى النساء وكانت النساء بدورهن يقعن أسيرات هواه، وقد عشق الوضاح امرأة قال لها «روضة» وقد اختلف أيضاً في نسبها، فمن العرب من يراها يمنية ومنهم من يراها فارسية ولأننا لانرى أهمية لهذه القضية فى سياقنا هذا فلن نطرح هذا الأمر للمناقشة، فهى ليست بالنسبة لنا أكثر من امرأة عشقها الشاعر وكتب فيها بعض القصائد، ولايهم إذا كانت عربية أو فارسية أو رومية، عشقها الوضاح واشتد كلفه بها حتى اشتهر أمره معها وقد ذكرها فى أشعاره دون كناية أو تورية أو مداراة، مما جعل رفض أهلها زواجه منها أمراً طبيعياً بعد ذلك، فالعرب ترفض تزويج الفتاة لمن يذكرها فى شعره أو يشيع أمر

حبه على الملاء، خشية أن يظن الناس أن هذا الزواج إنما تم لستر أمر ما قد حدث بين
العاشقين، ومن شعره فى روضة قوله:

| | |
|-----------------------------------|---------------------------------|
| ياروضة الوضاح قد | عنيت وضاح اليمن |
| فاسقى خليلك من شرا | ب لم يكدره السدرن |
| إنى تهيجنى إليك | حمامتان على فن |
| الزوج يدعو إليه | فتطاعما حب السكن |
| لاخير فى نث ^(١) الحديد | ث ولا الجليس إذا فطن |
| فاعصى الوشاة فلما | قول الوشاة هو الغبن |
| إن الوشاة إذا أتو | ك تنصحو ونهوك عن ^(٢) |
| لوقيل ياوضاح قم | فاختر لنفسك أو تمن |
| لم أعد روضة والذى | ساق الحجيج له البدن |

لعلنا الآن نقف على طبيعة الغزل عند الوضاح، فلم يكن الوضاح شاعراً يتغزل غزلاً
عفيفاً، ولا غزلاً صريحاً، ولكنه كان يمزج بينهما بشكل فنى طريف، فالمفردات عفيفة والمعنى
صريح يبدو عند التأمل والتحقيق فى بعض الصور ففى قوله:

(١) نث الحديد: إذاعته

(٢) يريد أن يقول عنى وقد حذفت الياء للوزن والقافية

فاسقى خليلك من شرا ب لم يكدره الدرن

إنى تهيجنى إليك حمامتان على فن

واضح أنه غزل صريح وإن كان اللفظ يأخذ القارئ فى البداية بعيداً عن هذه الرؤية،
فماذا يكون ذلك الشراب الذى لم يكدره الدرن إن لم يكن هو ريق حبيبته؟ وماهو وضع
الحمامتين اللتين «تهيجان» الشاعر على الفن؟

أليس وضعاً غرامياً مثيراً يود لو فاز بمثله مع محبوبته.

ومن طريف ماقاله الوضاح فى روضة قوله:

ياروض جيرانكم الباكـر فالقلب لالاه ولاصاير

قالت ألا لاتلجن دارنا إن أبانا رجل غـائر

قلت فإنى طالب غـرة منه وسيفى صارم بائر

قالت فإن القصر من دوننا قلت فإنى سايح ماهر

قالت فحولى إخوة سـبـمة قلت فإنى غالب ماهر

قالت فليث رابض بيننا قلت فإنى أسد عاقر

قالت لقد أعيتنا حجة فأت إذا ماهجع السامر

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا نـاه ولا زاجر

هذه لوحة جميلة تصور أول ماتصور خصوبة خيال الشاعر الذى تخيل كل ذلك الحوار
بينه وبين حبيبته، وأعذب ما فيها هو تخيله لطول الحوار الذى يتمناه ويصعب على من هم

فى مثل ظروفهم أن يتبادلوه فى هدأة وسكينة، فتصور أنها جالسة فى أمان بعيداً عن أعين الرقباء وما أكثرهم ثم راح يرجو وصلها رجاء المشتاق الظمىء المعبذب، بينما راحت هى تحذره بدورها من عواقب تلك المجازفة، ولعل الوضاح كان يلتمس لحبيته العذر إثر العذر من خلال هذه العقبات التى كانت تضعها أمامه أو أمام لقائهما أو عبارة أخرى من خلال هذه العقبات التى يضعها هو على لسانها، وكأن لسان حاله يقول لها: «أعرف يا حبيبتي ما يمنعك منى».

ليس من الصواب أن يتصور القارئ لهذه الأبيات أن حواراً حقيقياً قد دار بين الوضاح وروضته ثم صاغه الوضاح شعراً بعد ذلك، فالأبيات تنتهى للون من الشعر يمكن أن نسميه شعر المجون وهو لون معروف سبق الواضح فيه شاعر كعمر بن أبى ربيعة الذى كان يحكى فى قصائده مغامراته مع النساء وكيف زارهن واستقبلنه وكيف قضى وطره منهن ثم كيف خرج من عندهن برغم المخاطر التى تحف ذلك، لكننا لن نتوقف عند ذلك الدليل، فليس معنى وجود ذلك اللون أن كل شعر يشبهه ينتمى إليه، لكننا سوف نأتى بدليل تخيل الحوار من الحوار ذاته، فإنه من المضحك بالفعل أن تحذر الفتاة حبيبها من أبيها فيقول لها:

قلت فلانى طالب غرة منه وسيفى صارم باتر

أليس من المضحك أن يفند الوضاح حجة حبيبته بقتل أبيها، فكأنه يقول لها إذا كان أبوك هو المشكلة قتلناه على غرة منه، وأى ليث ذلك الرابض بينهما لكى يكون الوضاح أمامه أسداً عاقراً، وقد تجاوزنا عن القصر والبحر والأخوة السبعة حول الفتاة. إن الوضاح بينه وبين نفسه أخذ يتصور كل ما يمكن أن يحول بينه وبين فتاته ويتصور أيضاً أنه يتغلب على

كل ذلك، ففي نهاية الأبيات يقول:

قالت لقد أعييتنا حجة فأت إذا ما هجع السامر

هذا البيت يؤيد أيضاً ما قلناه، فلم يكن الحوار بينهما مجرد جدل بيزنطى ينتهى بنصرة أحدهما على الآخر بقوة حجته ولكنه - إن كان حواراً حقيقياً - يترتب عليه حدث هام هو زيارة الشاعر لمحبوته، وليس من السهل ذلك كما أن براعته فى المحاوره لا يمكن أن تلغى تلك المخاطر التى تصور أنها بهذه السهولة.

لم يكن الواضح لينسى حبه بمجرد رفض أهل حبيبته تزويجه إياها، فالحب ليس من العلاقات الاجتماعية التى يمكن أن تتأثر أو تهتز لمثل هذه الأمور، فهو علاقة شديدة الخصوصية بينه وبين حبيبته، لذلك تراه يذكرها فى شعره حتى بعد أن زوجت غيره، فيقول:

يا أيها القلب بعض ما تجد قد يعشق المرء ثم يتبد

قد يكتم المرء حبه حقاً وهو عميد وقلبه كمد

ماذا تريد من فتى غزل قد شفه السقم فيك والسهد

يهددونى كيما أخافهم هيهات أنى يهدد الأسد

لقد أصر وضاح على حبه لروضة حتى تدخل القدر ففرق بينهما الفراق الذى ليس بعده لقاء، فقد أصيبت روضة بمرض الجذام، وكان العرب يعزلون مرضى الجذام فى أماكن خاصة نائية عن الأماكن المأهولة كتلك التى نسميها الآن مناطق «الحجر الصحى» خوفاً من انتشار المرض بين الناس، وقد مر عليها الواضح أثناء سفره مع بعض أصحابه، فاستوقفهم

وعدل عنهم ساعة فزارها وأصلح من شأنها وأعطاهما نفقة من ماله ثم عاد لأصحابه يبكى، فلما سألوه عن سبب بكائه أخبرهم بما رأى، لكن من الغريب أننا لا نجد للوضاح شعراً يرثى به روضة، ربما قال ذلك الشعر فضاع مع ماضع من الشعر العربى الذى لم تستطع السنوات الطويلة أن تحتفظ به كله، وربما ماتت ولم يعلم بموتها، وربما أراد أن يحتفظ بذكرها ندية فى نفسه، فرثاؤه لها يؤكد فكرة موتها التى ربما كان يود الفرار منها، كأنه يريد أن يحيا حياة المشتاق المعذب ويفضلها على حياة الفاقد الشاكل، ربما أراد أن يكون آخر عهده بها قوله:

لو قيل يا وضاح قم فاختر لنفسك أو تمن
لم أعد روضة والذى ساق الحجيج له البدن

حينما أقف أمام شخص ما تسبب جماله فى هلاكه أذكر على الفور قول الشاعر حافظ إبراهيم:

فوردة الروض لولا حسن منظرها لما استطالت عليها كف جانبها

فاليد تمتد لتقطف الوردة غير عابئة كثيراً بمصير هذه الوردة، ولم يكن الوضاح أقل جمالاً من وردة امتدت إليها يد أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك فأهلكتها.

كانت أم البنين فى حجها قد قدمت مكة ومعها بعض جواربها، وقد كتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن معها، لكنها حينما وقعت عينها على الوضاح هويته، وطلبت منه ومن كثيراً أن ينسبها بها، لكن كثيراً أدرك عاقبة ذلك وتحسب له فعدل عن النسب بها ونسب بجارية لها تسمى غاضرة فقال:

شجاً أظعان غاضرة الغواذى بغير مشورة عرضاً فؤادى

أغاضر لو شهدت غداة بتتم حنو العائدات على وسادى

أويت لعاشق^(١) لم تشكّميه بواقدة تلذع كالزناد

لكن الوضاح لم يكن على ذلك القدر من الحذر والحيطه، فقد انطلق لسانه برقيق الشعر نسيباً في أم البنين، متغافلاً عن مكانتها ومكانة زوجها وهو من هو في الدولة، ولسنا نرى لجرأة الوضاح ما يبررها لامن الناحية العقلية ولا من الناحية العاطفية ولا من الناحية المادية.

فمن الناحية العقلية لم تكن أم البنين امرأة عادية شأنها شأن كل النساء اللاتي يمكن أن يتناولهن شاعر بالنسب مستنداً إلى بأسه أمام بأس زوجها، أو إلى بأس قبيلته أمام بأس قبيلتها، إنما كانت أم البنين زوجة الرجل الأول في الدولة وهو خليفة المسلمين، لذلك لا يمكن أن نمر بهذه المسألة دون أن نسجل استنكارنا لموقف الوضاح وجرأته التي جرت عليه الهلاك ووضعت في طريق رجل من عائلة جاءنا تاريخها مكتوباً بدماء قتلاها.

أما من الناحية العاطفية فلم يكن الوضاح عاشقاً يتحرق شوقاً لأم البنين فيتدفق اسمها في أشعاره وهو في نشوة المحب الغائب في نوبة شوقه، فيغفل أو يتغافل عن مكانة محبوبته ومكانة زوجها، إنما كان شاعراً جميلاً الوجه عشقته زوجة الخليفة وأرادت أن يؤثرها على النساء وينسب بها نسباً يرضى غرور أنوثتها، فالمرأة هي المرأة في أي عصر وأي مكان ومكانة، تحب أن تكون الأثيرة لدى الرجال وأن يشتهر ذلك عنها، وليس أقدر على ذلك من

(١) أويت لعاشق: أشفقت عليه

الشاعر الذى كان فى ذلك العصر أوضح أجهزة الإعلان صوتاً لالتفاف الناس حوله وجريان شعره على ألسنتهم وترديده فى كل متددى وسوق، لكن ذلك لا يبرر للوضاح مافعله، فقد كان فى إمكانه أن يسترضيها بشيء غير حياته ولن يتهم بالبخل حينئذٍ أو بالجبن أو بالتخاذل.

أما من الناحية المادية فلم يثبت أن الوضاح كان فقيراً فيضطر لفعل مافعل طلباً للمال، ولو كان فقيراً لاحترف المدح والوقوف بباب الأغنياء وذوى المناصب فى الدولة، لكن تاريخه مملوء بقصص الهوى وشعر الغزل، كما أن النساء لانهجن الشاعر المتغزل بالمال وإنما لهن ثرواتهم التى يمكن أن يهبن منها دون أن تنتقص شيئاً، وكان الأولى به أن يمدح زوجها وهو الخليفة فيعطيه مايغنيه وينصلح به حاله، وهذا بالضبط مافعله، فقد قال فيه بعض القصائد التى أشاد فيها بقوته وكرمه وسماحته وغير ذلك مما كان يمدح به الملوك والخلفاء، لكن ذلك حدث بعد فوات الأوان، فسرعان مانتشر شعره فى أم البنين فلم تعد لمدائحه أى صدى عند الخليفة، فذلك أمر لا يمكن لقصيدة مههما بلغت فخامتها أن تمحوه أو تخفف من حدة وطأته، لذلك لانرى للوضاح عذره المادى.

أما التفسير الوحيد الذى يمكن أن نطرحه لموقف الوضاح فهو تفسير نفسى، فوجود كثير معه فى نفس الموقف ربما فتح عليه باب التميز والاختلاف، فأراد أن يصرح باسمها بعد أن تجاوز كثير عن ذلك وشبب بجاريتها «غاضرة»، ورغبة الرجل فى التميز أمام المرأة لا يعادلها إلا رغبة المرأة فى التميز أمام الرجل، ويمكننا أن نقول إن العالم لو خلا من النساء لخلا من بطولات الرجال، فلا يمكن أن نتصور أن الحروب التى خاضها عنترة من أجل عيلة كان من الممكن أن يخوضها من أجل رجل آخر أياً كانت مكانته بالنسبة لعنترة، فالمسألة بعد تجريدها

من تفاصيلها هي مسألة امرأة عاشقة ورجل شاعر.

لعله من المناسب الآن أن نورد بعض أشعاره في أم البنين لنرى كيف يموت الرجل المجرد من أجل المرأة المجردة.

يقول وضاح:

| | |
|----------------------|-------------------|
| أصحوث عن أم البنيـ | من وذكرها وعنائها |
| وهجرتها هجر امرىء | لم يسل صفو صفائها |
| قرشية كالشمس أشـ | رق نورها ببهاها |
| زادت على البيض الحسا | ن بحسنها ونقائها |
| لما اسبكرت للشبا | ب وقنعت بردائها |
| لم تلتفت للذاتها | ومضت على غلوائها |
| لولا هوى أم البنيـ | من وحاجتى للقاءها |
| قد قربت لى بغلة | محبوسة لنجائها |

ومن شعره أيضاً مقطوعات أوضح غزلاً من المقطوعة السابقة وأكثر جرأة، يقول:

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| صدع البين والتفرق قلبى | وتولت أم البنين بلى |
| ثوت النفسى فى الحمول لديها | وتولى بالجسم منى صحبى |
| ولقد قلت والمدامع تجرى | بدموع كأنها فيض غرب |
| جزعاً للفراق يوم تولت | حسبى الله ذو المعارج حسبى |

وإذا كان الشاعر في المقطوعتين السابقتين يستخدم في خطاب أم البنين ضمير الغائبة،
أى أنه يتكلم عنها ولا يكلمها فإنه في المقطوعة التالية يخاطبها خطاباً مباشراً فيقول:

| | |
|--|---------------------------------------|
| يا ابنة الواحد جودى فما | إن تصرمينى ^(١) فبما أولاً |
| جودى علينا اليوم أرتقى | فيم قتلت الرجل المسلما |
| ماعلق القلب كتعليقها | واضحة كفاً علت معصما |
| ربة محراب إذا جئتها | لم ألقها أو أرتقى سلما |
| لامنة أعلم كانت لها | عندى ولا تطلب فينا دما |
| بل هى لما رأت عاشقاً | صبا رمته اليوم فيمن رمى |
| لما ارقبنا ورأت أنها | قد أثبتت فى قلبه أسهما |
| أعجبها ذاك فأبدت له | سنتها ^(٢) البيضاء والمعصما |
| قامت تراءى على قصرها | بين جوار خرد ^(٣) كالدمى |
| ونعقد المرط ^(٤) على جسرة ^(٥) | مثل كتيب الرمل أو أعظما |

لعلنا نجد دوافع القتل واضحة جليلة فى تلك المقطوعة لدى الوليد بن عبد الملك، فالبيت
الأول يقطر عشقاً متجاوزاً كل الحدود، فهو يستخدم النداء بـ «يا» وهى حرف ينادى به

(١) تصرمينى: تقاطعنى
(٢) سنتها: وجهها
(٣) خرد: جمع خريدة وهى البكر التى لم تمس قط، وقيل هى الحية الطويلة السكوت الخافضة الصوت
(٤) المرط: كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به
(٥) الجسرة: العجيزة

القريب والبعيد، فكأنه يريد أن يصور قريبا إلى نفسه وبعدها عن عينيه، واستخدم فعل الأمر «جودى» بما يحمل من دلالات تؤكد وثاقة الصلة بين الشاعر ومحبوته، والتميز الذى جاء بعد فعل الأمر «فما» يضع الخطوط الأخيرة فتبدو اللوحة مخدعية لا يمكن رؤيتها أو قبولها على غير ذلك، وبذلك تكون الشطرة الأولى مسماراً فى نعش الوضاح.

أما الشطرة الثانية فبدأها الشاعر بأداة الشرط «إن» التى تفيد الشك، فكأنه قد وثق من نفسه ومن قدره عند محبوته فأصبح يشك فى قدرتها على هجره أو مقاطعته، كما كان واضح الحساسية البلاغية حينما لم يجرى بفعل بعد فعل الشرط «تصمينى» يكون جواباً له، فكأنه بشكه فى حدوث الفعل الأول يريد أن يستثير اللغة للتعاطف معه من خلال تجاوز قواعدها أو التحايل عليها، لذلك جاء بعد فعل الشرط باستفهامين متوالين غرضهما الاستنكار والتعجب.

والبيت الأخير الذى صور فيه أم البنين وقد عقدت على جسرتها كساءً من الخز، فبدت عجيزتها كأعظم مائكون إنما كان آخر مسمار فى نعش الوضاح.

وربما أحس الوضاح بما يحيط به من خطر من قبل الخليفة أو بتعبير أنسب من قبل زوج المرأة التى ملأ بها الدنيا شعراً، فراح يبتغى السبل لإرضائه، وقد وعدته أم البنين أن ترفده عنده وتقوى أمره، فمدحه الوضاح بعدة قصائد منها قوله:

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| صبا قلبى ومال إليك ميلاً | وأرقنى خيالك يائيلاً |
| ثمانية تلم بنا فتبدى | دقيق محاسن وتكن غيلاً |
| فإنك لو رأيت الخيل تعدو | سراعاً يتخذن النقع سيلاً |

إذا لرأيت فوق الخيل أسداً تفيد مغانما وتغيث نيلا

إذا صار الوليد بنا وسرنا إلى خيل نلف بهن خيلا

وتدخل بالسروور ديار قوم وتعقب آخرين أذى وويلا

وكما كان الوليد يجزل صلة الشعراء فقد أجزل صلة الوضاح وأحسن رفده وأغدق عليه بالعطايا حتى بلغه أنه شبب بأم البنين فجفاه وأمر بأن يحجب عنه ودبر في قتله.

يورد أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» بعضاً من الروايات حول قتل الوضاح، تختلف في تفاصيلها وتتفق في نتيجتها، ففي إحدى هذه الروايات، أن الوضاح قد شبب بأم البنين، فأمر الوليد بن عبد الملك بطلبه، فأتى به، فأمر بقتله فقال له ابنه عبد العزيز: لاتفعل يا أمير المؤمنين فتحقق قوله، ولكن افعل به كما فعل معاوية بأبي دهيل، فإنه لما شبب بابتته شكاه يزيد وسأله أن يقتله فقال: إذن تحقق قوله، ولكن تبره وتحسن إليه فيستحي ويكف ويكذب نفسه، فلم يقبل الوليد من ابنه، وجعل الوضاح في صندوق ودفنه حياً.

وفي رواية ثانية أن أم البنين عشقت وضاحاً، فكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها، فإذا خافت وارتته في صندوق عندها وأقفلت عليه، فأهدى للوليد جوهر أعجبه، فدعا خادماً له فبعث به إلى أم البنين وقال: قل لها: إن هذا الجوهر أعجبني فأثرتك به، فدخل الخادم عليها مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى، فأدى إليها رسالة الوليد ودفع إليها الجوهر، ثم قال: يامولاتي هبيني منه حجراً، فقالت: لا يا ابن اللخناء ولاكرامة، فرجع إلى الوليد فأخبره فقال: كذبت يا ابن اللخناء، وأمر به فوجئت عنقه، ثم لبس نعليه ودخل على أم البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط، وقد وصف له الخادم

الصندوق الذى أدخلت الوضاح فيه، فجلس عليه ثم قال لها: يأم البنين ما أحب إليك هذا البيت من بين بيوتك! فلم تختارينه؟ فقالت: أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها كلها من قريب.

فقال لها: هبى لى صندوقاً من هذه الصناديق، قالت: كلها لك ياأمير المؤمنين، قال: ماأريدها كلها، إنما أريد واحداً منها، فقالت: خذ أيها شئت، قال: هذا الذى جلست عليه، قالت: خذ غيره فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها، قال: ماأريد غيره، قالت: خذه ياأمير المؤمنين، فدعا بالخدم وأمرهم بحمله، فحمله حتى انتهى به إلى مجلسه فوضعه فيه، ثم دعا عبيده فأمرهم فحفروا بئراً فى المجلس عميقة، فنحى البساط وحفرت إلى الماء ثم دعا بالصندوق فقال: يا هذا إنه بلغنا شىء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك وودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً فإننا دفنا الخشب وماأهون ذلك، ثم كذب فى البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض ورد البساط إلى حاله وجلس الوليد عليه، ثم مارئى بعد ذلك لوضاح أثر فى الدنيا، ومارأت أم البنين لذلك أثراً فى وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما.

وفى رواية ثالثة أن الوليد بن عبد الملك بلغه تشبيب وضاح بأم البنين فهم بقتله، فسأله عبد العزيز ابنه فيه، وقال له: إن قتلته فضحتنى وحققت قوله، وظن الناس أن بينه وبين أمى ريبة، فأمسك عنه على غيظ وحنق، حتى بلغ الوليد أنه قد تعدى أم البنين إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه، وقال فيها:

أخت الخليفة والخليفة بعلمها

بنت الخليفة والخليفة جدها

وكذلك كانوا فى المسرة أهلها

فرحت قوابلها بها وتباشرت

فأحنق واشتد غيظه وقال: أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا وأخواتنا، ولاله عنا
مذهب! ثم دعا به فأحضر، وأمر بيتر فحفرت ودفنه فيها حياً.
مهما يكن من أمر هذه الروايات فلن نحاول ترجيح واحدة منها على الأخرى مادامت
الروايات جميعاً تتفق في دفن الوضاح، لكن أخباره وذكره وأشعاره لم تدفن معه كما كان
يعتقد الوليد.

شعراء قتلهم شعرهم _____

بشار بن برد

(لِبشار في تاريخ الأدب العربى صورة حالكة شديدة السواد، أسهم فى رسمها مؤرخو هذا الأدب، قدامى ومحدثون، ويطول المقام لو حاولنا حصر الصفحات الدميمة التى ألصقت به، ويكفى أن نعرف أن هذه الصورة فى النهاية تكان تكون تجسيداً حياً للبشر الكامل المتجرد من كل ذرة من الخير، ولعل هذا مايبيح لنا أن نزع من البداية أن مثل هذه الصورة المفرطة لايعقل أن تتحقق - لاهى ولانقيضتها المبالغة فى الخير - فى بشر لأن الأرض التى نعيش عليها لم يخرج إليها الشياطين، كما لم تنزل عليها الملائكة.

بشار فى هذه الصورة الشائعة: قاسى القلب، حاقد على البشر، يعن فى هجائهم ويتلذذ به، داعر فاجر لايعرف للعرض حرمة، شديد التهالك على النساء، يندفع إليهن اندفاعاً حيوانياً يشمئز منه الذوق.

كما جمع إلى دمامة الخلقة - فى هذه الصورة - ثقل الروح وغلظة الشعور، وجبن الطبع، وتلون رأى وخيانة الصديق، ثم هو زنديق منافق، وشعوى متبجح، وهجاء سليط اللسان^(١).

وهذه الصورة التى رسمها معاصروه والتى لم تزدها القرون إلا قتامة، وجدت من النقاد المعاصرين من يلقى عليها كثيراً من الظلمة التى صورت الرجل وكأنه غول متوحش مستندين إلى صفاته الجسمية، فقد (كان ضخماً، عظيم الخلق والوجه، مجدوراً طويلاً، جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظراً)^(٢).

(١) محاضرات فى الأدب العباسى للدكتور محمد عبد العزيز موافى ص ١٢٩ مكتبة الشباب

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٩٨٧ ط. دار الشعب

ولم يدركوا أن هذا الأمر - لخروجه عن إرادته - لا يمكن أن يكون منقصة في الرجل ولا عيباً حصله ولا جرماً ارتكبه فيحاكم عليه.

واللوحة التي وصلتنا مصورة الملامح النفسية لبشار، لاشك هي لوحة كاريكاتورية تحمل بين خطوطها الكثير من المبالغة المقصودة وغير المقصودة، ولاشك أن بعض مواقف بشار والتي استخدمها معاصروه ومعاصروننا في رسم هذه اللوحة كانت وليدة مواقف أخذها منه مجتمعه، فكانت مواقفه في مواجهة مواقفهم، ولم تكن طبيعة متأصلة في نفس الرجل..

ففي مسألة حقه على البشر - إن قبلناها كما وصلتنا - نجد واحداً منهم يتعرض لهجاء بشار، فيغلظ له القول ويعيره بعماء، ويرمى أمه بالزنا،

يقول أبو هشام الباهلي:

وعبدى فقا عينيك في الرحم أيره
فجئت ولم تعلم لعينيك فاقيا
أملك يابشار كانت عفيفة
على إذا مشى إلى البيت حافياً

كيف تتوقع رد فعل رجل حساس رهيف الشعور، حينما يسمع ذلك الهجاء الذي يقدم تعليلاً فيزيقياً لحدوث عاهته التي لا يستطيع أن ينساها، وكيف ينساها وكل مافى حياته الخاصة، والحياة العامة يذكره بها؟!

يقول أبو الفرج:

(ولم يزل بشار منذ قال فيه هذين البيتين منكسراً)، لقد انكسر الرجل، فهل نلومه على محاولته لم شتات نفسه المنكسرة ومحاولة إصلاحها، ألا يمكن أن نتوقع سلوكاً

مغايراً لبشار تجاه البشر إذا كانت الظروف مغايرة، وربما كان حمق المحيطين به سبباً آخر من أسباب تبرمه بالناس، (فقد رفع له غلامه فى حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم، فصاح به بشار قائلاً: والله ما فى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صدئت عين الشمس، حتى يبقى العالم فى ظلمة ما بلغت أجره من يجلوها عشرة دراهم)^(١)، ألا يستدعى ذلك الأمر حنقاً من الرجل أمام حمق غلامه أو خبثه، فربما أراد أن يأخذ الدراهم العشرة لنفسه، فبشار لن يستطيع التحقق من جلاء المرأة، فوضعه بذلك - على الرغم من تفاهة المسألة فى أزمة كبرى، فكان رد فعله الطبيعى ذلك السخط الذى أغرق فيه غلامه.

يروى أبو الفرج:

(مر رجل ببشار فقال: يا بشار، فقال: من هذا الذى لا يكتفى ويدعونى باسمى؟ فقال: سأخبرك من أنا، فأخبرنى أنت عن أمك: أولدتك أعمى، أم عميت بعدما ولدتك؟ فقال: وما تريد إلى ذلك؟ قال: وددت أنه فسح لك فى بصرك ساعة لتنظر إلى وجههك فى المرأة، فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك، فقال: ويحكم! من هذا؟ أما أحد يخبرنى من هذا؟ فقال له: على رسلك، أنا رجل من عكل خالى يبيع الفحم بالعبلاء، فما تقدر أن تقول لى؟ قال: لاشىء اذهب، بأبى أنت فى حفظ الله)^(٢).

إن هذه الغلظة التى لا يحتمل سماعها من لاناقة له فى الأمر ولا جمل، من الصعب جداً

(١) الأغاني ص ١٠٠٨

(٢) الأغاني ص ١٠١٨

أن نطالب رجلاً كبشار بتحملها، فإذا لم يفعل اتهمناه بالتبرم بالناس وبضييق الصدر وثقل الروح.

والغريب أن هذا الرجل المسكين كان محسوداً من شعراء عصره على ما يناله من عطايا، وقد فرض عليه شاعر يسمى «أبو الشمقمق» جزية سنوية يأخذها منه، إلى جانب ما تيسر من كل أغطية يعطاها بشار، (أمر عتبة بن مسلم لبشار بعشرة آلاف درهم، فأخبر أبو الشمقمق بذلك، فوافى لبشار فقال له: يا أبا معاذ إني مررت بصبيان فسمعتهم يثشدون:

هَلْ لَيْتَ هَلْ لَيْتَ طَعْن قِثَاءَ لَيْتَ
إِنْ بَشَارَ بْنَ بَرْدٍ تَيْسَ أَعْمَى فِي سَفِينَةٍ

فأخرج إليه بشار مائتي درهم وقال: خذ هذه ولا تكن راوية للصبيان يا أبا الشمقمق^(١).

أليس غريباً من شاعر هجاء أن يدفع ثمن السكوت عنه؟ ألم يكن من الطبيعي أن يتركه بشار يقول ما يقول، ثم يرد عليه؟ لقد كان بشار يشفق على نفسه من هجائهم، ولا شك أنه كان يعتقد بعدم التكافؤ بينه وبينهم، لامن الناحية الفنية، فقد كان بشار أقدمهم هجاء وأسلطهم لساناً، وقد تعرض لهجاء جرير شخصياً وقد أحزنه أن جريراً لم يرد عليه، لكن المسألة تختص بالآفة، إنه يحاول أن يتجنب مهاجاة من يبدأون بذكرها في هجائهم له، لأنه في هذه الحالة لن يستطيع الرد عليهم بمثل ما قالوا، وربما كان للهجاء تصور خاص في ذهن

(١) الأغاني ص ١٠٤١

بشار يخرج منه ماقاله أبو هشام الباهلى وأبو الشمقمق فلا مجال إذن للرد عليهم لأن ماقالوه ليس هجاءً فى تصور بشار وذلك ما أرجحه، وهذا أيضاً يدحض رأى القائل بجبته عندما سكت عن من يهجوّه ولم يرد عليهم.

أما عن ثقل الروح فهى تهمة نراها تلصق بأى رجل غير بشار، فالفكاهة والدعابة وسرعة البديهة وخفة الروح عند بشار تفوق نظيراتها عند غيره من شعراء عصره، وسيرته تحمل الكثير من المواقف والشواهد على ذلك، يروى أبو الفرج: (مر بشار يقوم يحملون جنازة، وهم يسرعون المشى بها، فقال: ما لهم مسرعين! أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم؟)^(١).

هذه لفتة ودعابة إن صدرت عن رجل ثقیل الروح لفضل الناس ثقل الروح على خفتها. وبلغ بشار من خفة روحه أنه قال شعراً على لسان حمارة الذى مات، وقد رآه فى المنام وسأله عن سبب موته، فقال:

| | |
|--------------------------|-----------------------|
| سـيـدـى خـدـبـى أـتـانـا | عند باب الأصـبـهـانـى |
| تـيـمـنـى بـنـان | وبدل قـد شـجـانـى |
| تـيـمـنـى يـوم رـحـنا | بـشـايـاها الحـسـان |
| وبـغـنـى جـ ودلال | سـل جـسـمـى وبرانى |

(١) الأغاني ص ١٠٧

ولها خد أسيل مثل خد الشيفران
فلذا مت ولو عــــشــــ ست إذا طال هوانى

فلما سألوا بشاراً عن الشيفران، وكان لفظاً لاتعرفه العرب، قال: وما يدرينى، هذا من غريب الحمار، فإذا لقيته فاسأله.

أى خفة روح هذه التى تصور الحمار يموت عشقاً، وتجعله شاعراً غزلاً ينسب بالأتان الذى أضناه وتيممه وأرقه حبها حتى مات، وأى سرعة بديهة تلك التى أسعفته فى الرد على من سأله عن «الشيفران»، فقد أكد أنه يروى شعر الحمار لاشعره، ولا يصح أن يسأل هو عن غريب جاء به غيره ولو كان حماره.

وحشو الشعر بالغريب من الألفاظ أمر اشتهر به بشار، فكان إذا أعوزته القافية لا يتعب نفسه فى طلبها والبحث عنها وإنما كان ينحت لفظاً يراه مناسباً للقافية ويقوله.

يروى أبو الفرج: (كان بشار يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التى لاحقيقة لها، فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه:

غننى للغريض يابن قنان

ف قيل له: من بن قنان هذا، لسنا نعرفه من مغنى البصرة؟ قال: وما عليكم منه! ألكم قبله دين فتطالبونه به، أو ثأر تريدون أن تدركوه، أو كفلت لكم به فإذا غاب طالبتمونى بإحضاره؟ قالوا: ليس بيننا وبينه شىء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فقال: هو رجل يغنى لى ولا يخرج من بيتى، فقالوا له: إلى متى؟ قال: منذ ولد إلى يوم يموت^(١).

(١) الأغاني: ١٠٠٩

لاشك أن هذا الحوار قد دار بين أناس يضحكون ملء صدورهم، وأخال بشاراً يضحك حتى يفرق الضحك بين الحرف وأخيه في الكلمة التي ينطقها، ثم يتبع ذلك بأن يصفق بيديه، ثم يضرب فخذه بهما وقد تمايل جسمه الضخم، ودمعت عيناه الجاحظتان.

وكما كان بشار مزاحاً في مجالس اللهو، كان أيضاً مازحاً في مجالس الجد والعلم فكان يقول الطرفة اليسيرة التي تهديء من حدة المناقشات وتجدد دم الجلسة من خلال ابتسامة تكون فاصلاً، فيبدأون بعدها بداية جديدة، ومن ذلك (كان بشار جالساً في دار المهدي والناس ينتظرون الإذن، فقال بعض موالى المهدي لمن حضر: ماعندكم في قول الله عز وجل: «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر» فقال له بشار: النحل التي يعرفها الناس، فقال: هيهات يا أبا معاذ، النحل بنو هاشم، وقوله: «يخرج من بطونها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس» يعنى العلم، فقال له بشار: أراني الله طعامك وشرابك وشفاءك يخرج من بطون بنى هاشم، فقد أوسعنا غثاء، فغضب وشم بشاراً، وبلغ المهدي خبرهما فدعى بهما وسألهما عن القصة، فحدثه بشار بها، فضحك حتى أمسك على بطنه، ثم قال للرجل: أجل فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم، فإنك بارد غث^(١).

واضح أن بشاراً أدرك ما بالرجل من النفاق الغث الذي جعل من ينافقه يشتمز منه ويوبخه ويهينه، لذلك عمد بشار إلى السخرية اللاذعة منه لأنه أدرك أن

(١) الأغاني ص ١٠٠٤

الرجل يفهم الآيات، ولكن يحلو له أن يفسرها تفسيراً يرائى به المهدي وهو من بنى هاشم.

(مر بشار بقاص في البصرة فسمعه يقول في قصصه: من صام رجلاً وشعبان ورمضان بُنى الله له قصرًا في الجنة، صحنه ألف فرسخ في مثلها، وعلوه ألف فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها، فالتفت بشار إلى قائده فقال: بثبت والله الدار هذه في كانون الثاني)^(١).

ربما كان ذلك رد فعل طبيعي تجاه مقولة رجل يدخل في الدين مالميس فيه، ومادام الأمر كذلك فلا بأس من أن يعلق بشار تعليقاً طريفاً فيه فكاهة تطفئ على غظيه من كلام الرجل.

ومن أطرف مواقف بشار التي تبرز سخريته من الاتجاهات المذهبية موقفه من رجل يسمى «هلال الرأي» وكان ثقيلاً لا يحتمله الناس، فقال له بشار: (يا هلال أظنني في نصيحة أخصك بها؟ قال: نعم، قال: إنك كنت تسرق الحمير زماناً ثم تبت وصرت رافضياً)^(٢)، فعد إلى سرقة الحمير فإنها والله خير لك من الرفض)^(٣).

إن هذا الخلط المقصود النابع من ازدراء بشار للرافضة وأتباعها لا يمكن أن يصدر إلا عن شخصية مرحة متفككة، تؤثر الضحك على اللجاج في المناقشات العقيمة التي يستمسك كل طرف فيها برأيه دون أن يسمع رأي وحجة الطرف الآخر، فبشار يحسم مثل هذه القضايا

(١) الأغاني ص ١٠٠٦

(٢) الرافضة. فرقة من الشيعة بايعوا زيداً بن علي ثم قالوا له تبرأ من الشيخين فأبى فرفضوه

(٣) الأغاني ص ١٠١٤

بشكل طريف، ينأى برأيه عن سماع المحفوظات التي يمكن أن يرددها هلال والتي جفظها في مجالس الرافضة، وأصبح مهياً لإلقائها في كل مناسبة تتاح.

هذه بعض المواقف التي رأينا أنها تدحض القول بثقل روح بشار وهي نقطة في محيط بالنسبة لما في حياته من مثل هذه المواقف، ولعل الذين قالوا بثقل روحه كان يعوزهم التعاطف معه أو على الأقل قراءة سيرته بحياد بعيداً عن تبرمه بالناس وضيقه بهم.

شعوبيته

أما كونه شعوبياً فهذا أمر ثابت عليه لن نحاول نفيه عنه، ولكننا سنحاول بقدر الإمكان توضيح ملامح شعوبيته، حتى يتسنى لنا الحكم الصحيح العادل عليها، هل هي رد فعل لموقف العرب تجاه الموالي أم هي نزعة متأصلة في نفس الرجل أخذ ينثث عنها في أشعاره، فقد (ساعد على اتساع الفجوة بين بشار ومجتمعه النظرة العرقية التي نظر بها العربى إلى الموالي غير مطبقين لمبادئ الإسلام في التسوية بين كافة الأجناس «سلمان منا آل البيت».. مكتفين بتطبيق العدل القضائي مهملين إقامة العدل الاجتماعى بينهم. فأخضعوا المجتمع المسلم لنظرة عنصرية يدينها الإسلام وانعكست هذه النظرة في مظاهر شتى من العلاقات الاجتماعية»^(١).

ونتيجة لهذا تعرض بشار لما عاناه غيره من الموالي، لكن بشاراً بحساسيته واعتداده بذاته، وازدراؤه لمجتمعه - لن يسهل عليه تجرع تلك الإهانات، وإذن فلتشتعل

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٢٢

الحرب بينه - هو ومن مائله - وبين المجتمع العربى، وبخاصة بعد أن دالت دولة العرب بقيام ملك بنى العباس على أكتاف الفرس الذين استغلوا وضعهم الحديد فى التنفيس عن أحقادهم المكبوتة، والثأر لما لحقهم طوال الحكم الأموى الذى أزرى بهم وأخرهم عن غيرهم.

ومن هنا كان الصوت الشعبوى من أقوى الأصوات فى شعر بشار، بدأه هادئاً، ثم استمر يعلو به حتى تحول إلى صخب وضجيج، يلاطم البيئة التى تصر على تحقير الموالى، وتعتنق النزعة العنصرية التى تجعل هؤلاء كماً مهملأ مؤخراً فى المجتمع ويمكن القول بأن هذه النزعة ضاعفت من حدة بشار وإفراطه فى هذا المجال فوقع فى نفس الخطأ الذى ارتكبه العرب، وعالج الداء بداء آخر لا يقل عنه شناعة^(١).

وهذا الداء الذى عالج به بشار داءه هو احتقار العرب والازدراء عليهم فى بعض شعره، وحتى نكون منصفين نقول إن هذا الاحتقار والإزدراء لم يجرى إلا نتيجة لمواقف استدعت ذلك، أى أن الرجل لم يكن يشيع أشعاره فى هجاء العرب، وإنما كان يقولها فى مواقف لتكون حصنه الذى يتحصن به أمام مواقف اتخذها بعض العرب تجاهه، منها مثلاً:

(دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوسى وبشار عنده وعليه بلذة الشعراء، فقال الأعرابى: من الرجل؟ فقالوا: رجل شاعر، فقال: أمولى هو أم عربى؟ قالوا: بل مولى، فقال الأعرابى: ومال للموالى وللشعراء فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال: أتأذن لى يا أبا ثور؟

(١) محاضرات فى الأدب العباسى ص ١٤١

قال: قال ماشئت يا أبا معاذ، فأنشأ بشار يقول:

| | |
|-------------------------|---|
| خليلى لأنام على اقتسنار | ولا أبى على مولى وجار |
| سأخبر فاخر الأعراب عنى | وعنه حين تأذن بالفخار |
| أحين كسيت بعد العرى خزا | ونادمت الكبار على العقار ^(١) |
| تفاخر يا ابن راعية وراع | بنى الأحرار حسبك من خسار ^(٢) |
| وكنيت إذا ظمئت إلى قراح | شركت الكلب فى ولغ الإطار ^(٣) |
| تريغ بخطبة كسر الموالى | وينسيك المكارم صيد فار ^(٤) |
| وتندو للقناد تدريها | ولم تعقل بدراج الديار ^(٥) |
| وتعشج الشمال للباسيها | وترعى الضأن بالبلد القفار |
| مقامك بيننا دنس علينا | فليتك غائب فى حر نار |
| وفخرك بين خنزير وكلب | على مثلى على الحدث الكبار |

قال مجزأة للأعرابي: قبحك الله! أنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك^(٦).

هذا هو رد بشار على تهكم الأعرابي وسخريته، والواقع أن سؤال الأعرابي لا يخلو من سخف وسماجة، فبعد أن عرف أن الرجل شاعر، سأل أمولى هو أم عربى؟ وسؤاله يحمل

(١) الخنز: الحرير، العقار: الخمر
 (٢) بنى الأحرار: يريد الفرس
 (٣) ولغ الإطار: شرب الماء الراكد حول البيت
 (٤) تريغ: تريد
 (٥) تدريها: تنهز فرصة لصيدها، تعقل: تلحق، الدارج: القنفذ
 (٦) الأغاني ص ١٠١٢ وما بعدها

اعترافاً بقدرة الموالى على قول الشعر وإجادتهم فيه وإكثارهم منه وكثرتهم فى ميدانه، ولو لم يكن كذلك لكان سؤاله على ذلك النحو: من أين الرجل؟ أو من أى العرب الشاعر؟ لكنه دون أن يدرى اعترف بما استنكره بعد ذلك بقوله: وماللموالى وللشعر.

يعلق أستاذنا الدكتور محمد عبد العزيز موافى على هذه القصيدة فيقول:

(ربما لو أمعنا النظر فى هذه القصيدة لأدركنا أنها ليست من قبيل ردود الأفعال، فالصور التى تلتصع فيها تكاد توحى بأنها نضجت على نار هادئة، وأن مبدعها يتهيأ لإخراجها ويفتن فى رسمها قبل أن تحين الفرصة لإعلانها)^(١).

لكن القصة التى أوردها أبو الفرج تجعلنا نرى رأياً مخالفاً، ففى الرواية أن بشاراً غضب وسكت هنيهة، ولا يمكن أن يفسر سكوته على أنه كان يفكر أيقول القصيدة - لو سلمنا جدلاً بأنها معدة سلفاً - أم لايقولها، فليس مثل هذا السلوك يتبناه بشار، ولو كانت القصيدة معدة سلفاً لسارع بإلقائها دون انتظار شىء، فهذا يظهره فى صورة الشاعر السريع البديهة، المجيد الارتجال، كما أن الموقف لا يستدعى الانتظار، لقد أهين ومن حقه أن يرد على هذه الإهانة، إذن لم تكن فترة سكوته إلا للإعداد السريع الذى يكون الانفعال فيه وقوداً لاستطيع اللبالي الهادئة توفيره، كما أن مجزأة السدوسى قد وبخ ذلك الأعرابى الذى تسبب فى وجود هذه القصيدة فقال له: قبحك الله! فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك، فقد اعتبر مجزأة القصيدة موجهة وليست مطلقة، وجهها بشار لذلك الأعرابى

(١) محاضرات فى الأدب العباسى

وأمثاله ممن يبخسون الموالى حقهم ويحاولون النيل من قدرهم، ويؤيد هذا الرأى كون مجزأة نفسه عربياً فهل يهجو به بشار - إذا كانت القصيدة مطلقة - وقد جاءه قاصداً مدحه؟!

نستطيع إذن أن نقول دون مبالغة أو مغالاة أن الشعوية لدى بشار كانت رد فعل للتفرقة العنصرية التى سادت فى ذلك العصر، كما أن انتشار الشعوية فى العصر العباسى يرى الرجل من كراهيته الخاصة للعرب وحقد عليهم.

تهالكه على النساء

كان بشار رجلاً مكتمل الصحة الجسمية والنفسية، وكأى رجل كان ولعاً بالنساء، والواقع أن ولع الرجال بالنساء أمر فطرى غرس فيهم، يتفاوتون بالنسبة لهذا الأمر تبعاً للصحة الجسمية والخبرات النفسية، هذا بالنسبة للاشتهاء، أما عن مدى إعلان هذا الاشتها فهذه قضية خلقية أكثر منها بيولوجية، فهم يتفاوتون فيه بحسب التدين والنشأة البيئية والخلقية.

والمرأة بالنسبة لبشار هى المرأة بالنسبة لغيره من رجال عصره على الأقل ولانقول بالنسبة للرجال بشكل مطلق، هى كائن رقيق، حنون، عذب الحديث، لديه كل ما يحتاجه الرجل على الأقل فى لحظات خلوه التى يبحث فيها عن ذاته التى لا يجدها إلا عند امرأة.

ولقد وصف بشار بأنه ذو شهوانية مفرطة وتهالك زائد على النساء، يقول الدكتور عبد العزيز الموائى (ولم يهرب بشار من مواجهة واقعه فكان لا يفتأ يعلل لتعلقه بالنساء على الرغم من عماه «فالأذن تعشق قبل العين أحياناً» ودعمه فيفيض غزيراً متحسراً على ما فاتته بفقد البصر، ومع ذلك لم يعدم حجة يبرر بها تعلقه بالنساء.

وكاعب قالت لأتربها
يا قوم ما أعجب هذا الضرير
هل يمشق الإنسان من لا يرى
فقلت والدمع بعيني غزير
إن تك عيني لا ترى وجهها
فإنها قد صورت في الضمير^(١)

لماذا نطالب الرجل بتقديم حجة يبرر بها تعلقه بالنساء؟ هل هذا يحتاج إلى حجة، إن الحجة واضحة جلية لا تحتاج إلى أن يسأل عنها، ألا وهي أن بشاراً رجل، وهي امرأة، تعلق كل منهما بالآخر أمر يفرضه اختلافهما في الجنس.

ومسألة فقد بصره لا تخرجه من عداد البشر حتى يتعجب من عشقه لواحدة من البشر، وإذا كان الناس قد اعتادوا النظرة سبباً في حدوث العشق ففاقد البصر يملك البدائل لهذه النظرة، فالبصر حاسة واحدة، بينما الحواس البشرية خمسة، كما أن الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - ليس لوحة مسطحة لا يمكن إدراكها إلا بوساطة العين، فالإنسان كائن يتكلم ويتنفس ويتحرك ويمارس الكثير من الأنشطة التي لا تجعله مجرد ملامح يجهلها من لا يراها.

الإنسان شخصية تتحرك في إطار هذه الملامح فإذا كانت العينان لا تدركان هذه الملامح، فالشخصية تُدرك ببقية الحواس فتحب أو تكره تبعاً لميل المحب لهذه الشخصية أو ميله عنها، وأعتقد أن هذا هو التحليل المقنع لرد فعل بشار تجاه من لاموه في حبة «عبدة» التي يبدو أنها لم تكن جميلة فقال:

(١) محاضرات في الأدب العباسي ص ١٥٨

يزهدينى فى حب «عبدة» معشر
قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارضى
فبالقلب لبالعين يصبر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى
ولا تسمع الأذنان إلا بمن القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا
وألّف بين العشق والعاشق الصب

المؤسف أن الناس قديماً وحديثاً استنكروا على بشار حبه للنساء، فلما أحب النساء، وصفوه بالشهوانية المفرطة التي تصل إلى الحيوانية، ثم راحوا يعللون هذا الإفراط فى الشهوة بعاهته - عماه - ويورد الأصمعى قولاً فى ذلك لم نسمع بأطرف ولا أفكه منه يقول:

(هما طرفان مذهب من أحدهما زاد فى الآخر)، وهو يقصد بالطرفين البصر والفحولة، وليس من تعليق على قوله سوى أن نسأله هذه الأسئلة: هل يمكن علاج العمى بالاختصاص؟ وهل يمكن علاج العجز الجنسي بفقء عين واحدة إذا كان عجزاً جزئياً، وبفقء العينين إذا كان العجز كلياً؟!

ويبدو أن أهل عصره قد أثقلوا عليه باستنكارهم المزعج لأن يكون عاشقاً حتى كثر شعره فى الرد عليهم وإفهامهم أن القلب محل العشق لا العين، يقول:

يا قوم أذنّى لبعض الحى عاشقة
والأذن تمسّق قبل العين أحياناً
قالوا: بمن لا ترى تهذى فقلت لهم
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
وقال أيضاً:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها
قلبى فأضحى به من حبها أثر
أنى ولم ترها تهذى فقلت لهم
إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

وقال:

إن سلىمى والله يكلوها كـالسكر تزداده على السكر
بُلِّغْتَ عنها شكلاً فأعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر

إن تشابه مضمون هذه الأبيات الذى يقودنا إلى الإحساس بالتكرار راجع إلى تشابه المواقف أو تكرارها، وكأن بشاراً يقول لهم: كُفُّوا ويحكم إننى بشر، والعينان ليستا هما إنسانية الإنسان، وهو حينما يكرر لفظ «الأذن» و«القلب» يريد أن يذكر الناس ويفهمهم أنه مثلهم يسمع ويحس، فقيم إذن استنكارهم؟!

وهذا الاستنكار هو الذى لفت نظر معاصرى بشار إلى سلوكه تجاه النساء فأصبح الرجل مراقباً مداناً من مجتمع لم يكن خيراً منه ولا أقل منه حرصاً على الاستمتاع بالمرأة، بل تجاوزوا ذلك واستمتعوا بالفلمان والرجال، لقد رأى ذلك المجتمع بشاراً بالمجهر حتى بدت تفاصيل حياته واضحة جليلة أمامهم، وبدت مغامراته الطبيعية - كما وكيفاً بالنسبة لعصره - مكبرة مئات المرات، حتى كرهوه وتبرموا به، وصروره كما لم يصور بشر.

هجاؤه ومقتله

(إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضيع الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللثام على المديح فليستعد للفقر وإلا فليبالغ فى الهجاء ليُخاف فيعطى)^(١).

هكذا تكلم بشار بن برد حينما سئل عن ميله للهجاء وإكثاره منه، والواقع أن

(١) الأغاني ص ١٠٥٣

شخصية بشار كانت بطبيعتها وتكوينها النفسى ومكانها من المجتمع أميل إلى الهجاء منه أى غرض شعري آخر، فنفسه الرقيقة التى قوبلت بغلظة المجتمع وجفائه كان عليها أن تشار لنفسها بالهجاء أو على الأقل تجعل منه حصناً تحمى به من مجتمع كالذى وجدت فيه، كما أن اختلافه - بمولده فاقد البصر - عن العامة قد حال بينه وبين القيام بعمل يرتزق منه، فلم يكن أمامه من طريق إلا الشعر الذى أخذ له أحد أغراضه وهو المدح، فقد مدح الكثيرين ولم يعطوه شيئاً، فتوصل أخيراً إلى أن الهجاء هو أقصر السبل للشهرة والشراء معاً.

ويبدو أن بشاراً قد احترف الهجاء منذ صباه المبكر (إذاً هجاً قوماً جاءوا إلى أبيه يشكونه فيضربه ضرباً شديداً فكانت أمه تقول: كم تضرب هذا الصبي الضير، أما ترحمه! فيقول: بلى والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ، فسمعه بشار فطمع فيه فقال له: يا أبت إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر، وإنى إن ألمت عليه أغنيك وسائر أهلى، فإن شكونى إليك فقل لهم: أليس الله يقول «ليس على الأعمى حرج» فلما عاودوا شكواه قال لهم برد ما قال بشار، فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار^(١).

وهكذا ذاع صيت بشار من خلال هجائه الذى كان يؤرق ويرعب من يتوعدهم به، ولم يكن بشار يخشى فى هجائه شخصية كبيرة فى الدولة ولا شخصية ذات حسب ونسب

(١) الأغاني ص ١٠٥٤

عريضين. وقد هجا العباس بن محمد أخا الخليفة المنصور، وهجا الخليفة المهدي نفسه
ووزيره يعقوب بن داود يقول في هجاء العباس:

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| ظل اليسار على العباسي ممدود | وقلبه أبدأ في البخل معقود |
| إن الكريم ليخفى عنك عسرته | حتى تراه غنياً وهو مجهود |
| وللبخيل على أمواله علل | زرق العيون عليها أوجه سود |
| إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم | تقدر على سعة لم يظهر الجود |

وهكذا كان الهجاء يمثل الخطوة التالية الطبيعية بعد أن يمدح فيخيب أمله ولا يعطى، فكان
هجاؤه بمثابة رجوع عن المدح الذي يرى أن ممدوحه - حين لم يعطه - لا يستحقه، وهكذا
هجا العباس ورماه بالبخل بعد أن أثبت له الغنى حتى يظهر بخله واضحاً، ثم صورة الكريم
الذي يخفى فقره عن الناس ويعطيهم حتى يظنوه غنياً، وهذه المفارقة تبرز الصورة وتزيد من
تأثيرها في نفس السامع حتى يظهر في الصورة الرجل الغنى الذي لا يعطى والفقير الذي
يعطى.

وقد مدح بشار الوزير يعقوب بن داود فلم يعطه شيئاً، فلما مازحه بشار علّه يمنحه،
أغلظ له يعقوب القول، فقال يهجو:

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| لا يأسن فقير من غنى أبدأ | بعد الذي نال يعقوب بن داود |
| قد صار من بعد إشراف على تلف | وبعد غل على الزندين مشدود |
| أخاً لمهدي خلق الله كلهم | يوفي به فوق أعناق الصناديد |
| لئن حسدت على مائت من شرف | لقد عنيت زماناً غير محسود |

بنى أمية هبوطاً لم نؤمكم إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفته الله بين الزق والعود

وقد (مدح بشار الخليفة المهدي فلم يعطه شيئاً، فقبل له لم يستجد شعرك، فقال: والله

لقد قلت شعراً لو قيل في الدهر لم يخش صحنى أحد، ولكننا نكذب في القول فنكذب

في الأمل)^(١)، وكان قد قال فيه:

إلى ملك من هاشم فإية ومن حمير في الملك في العدد الدثر^(٢)

من المشترين الحمد تندى من الندى يداه ويندى عارضاه من العطر

فألزمت حبلى حبل من لا تُقبه عفاة الندى من حيث يدرى ولا يدرى

بنى لك عبد الله بيت خلافة نزلت بها بين الفراقد والنسر

وعندك عهد من وصاة محمد فرعت به الأملاك من ولد النضر^(٣)

فلما لم يعطه الخليفة مالاً ولا كسوة ولا ناقة ضاق به ذرعاً وقال يهجو:

خليفة يزنى بعماته يلعب بالدبوق والصوبجان^(٤)

أبدلنا الله به غيره ودس موسى في حر الخيزران

ومن خلال أعداء بشار - وما أكثرهم - وصل شعره هذا إلى الوزير يعقوب بن داود

(١) الأغاني ص ١٠٦٢

(٢) الدثر: الكثير

(٣) فرعت: علوت

(٤) الدبوق: لعبة يلعب بها الصبيان

الذى ناله من لسان بعار عار كبير، فسعى بهذا الشعر إلى المهدي (فدخل يعقوب على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين، إن هذا الأعمى الملحد الزنديق قد هجأك، فقال: بأى شيء، قال: بما لا ينطق به لسانى ولا يتوهمه فكرى، قال له: بحياتى إلا أنشدتنى، فقال: والله لو خيرتنى بين إنشادى إياه وضرب عنقى لاخترت ضرب عنقى، فحلف عليه المهدي بالآيمان التى لا فسحة فيها أن يخبره، فقال: أما لفظاً فلا، ولكنى أكتب ذلك، فكتبه ودفعه إليه، فكاد ينشق غيظاً^(١)، ثم قصد المهدي البصرة وقبض على بشار وأمر بضربه بالسوط حتى الموت، فأخذ إلى سفينة وضرب سبعين سوطاً حتى مات فلقوا به فى الماء، (فحملة الماء فأخرجه إلى دجلة فأخذ فأتى به أهله فدفنوه)^(٢).

وهكذا مات بشار بن برد ضحية لمجتمع شمت بموته وقد تبأشر الناس وهنا بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا.

ولم يمش فى جنازة بشار إلا أمه سوداء سندية عجماء ماتفصح تصيح: واسيدها! واسيدها.

وهذه الأمة هى «عبدة» التى قال فيها:

يعاتبني فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبى

ويبدو أن قلبها فيه كان مخالفاً قلوبهم، فهى الوحيدة التى استطاعت أن ترى وتلمس وتكلم وتصاب بشاراً الإنسان.

(١) الأغاني ص ١٠٨٩

(٢) الأغاني ص ١٠٩٤

شعراء قتلهم شعرهم

حماد عجرد

هو واحد من كبار هجائي عصره، كانت بينه وبين بشار بن برد جولات كثيرة امتدت حتى بعد موت حماد، وهجاء حماد أفحش وأقذع كثيراً من هجاء بشار غير أن الهجاء عند بشار كان أرقى من الناحية الفنية وأكثر صوراً.

وعلى كثرة الهجاء في شعر حماد إلا أننا لانستطيع أن نعرض إلا النذر اليسير وذلك لفحشه وامتلائه بالألفاظ المستنكرة التي يأبأها الذوق وتمجها الأذان، حتى بدا بشار أمامه شاعراً مهذباً عفيف اللفظ رقيق الصورة.

ويبدو أن حماداً كان أكثر اقتراباً من صفوة المجتمع العباسي آنئذ من بشار فكان بشار يسأله قضاء حاجاته عندهم، وحدث أن أبطأ حماد في إنجاز حاجة لبشار عند عقبة بن نافع، فغضب بشار وقال يهجوهم:

| | |
|-----------------------------|--|
| مواعيد حماد سماء مخيلة | تكشف عن رعد ولكن ستهرق |
| إذا جئته يوماً أحال على غيد | كما وعد الكمون مالم يصدق ^(١) |
| وفى نافع عني جفاء وأنسى | لأطرق أحياناً وذو اللب يطرق |
| وللنقري قوم فلو كنت منهم | دعيت ولكن دوني الباب مغلق ^(٢) |
| أبا عمر خلفت خلفك حاجتي | وحاجة غيري بين عينيك تبرق |

فغضب حماد من قول بشار وأنشد نافعاً الشعر ومنعه من صلة بشار، وهكذا بدأت

(١) الكمون: الثبات المعروف، ويضرب المثل بمواعيد شربه فيما لا يصدق

(٢) النقري: الدعوة الخاصة

الحرب مستعرة بينهما، وقد اتفقا على أن يكون بينهما وسيط ينقل لكل واحد شعر الآخر فيه، ونقل الرجل لبشار قول حماد:

| | |
|-------------------------|-----------------------|
| إن تاه بشار عليكم فقد | أمكنك بشاراً من التيه |
| وذلك إذ سميت به باسمه | ولم يكن حريسميه |
| فصار إنساناً بذكرى له | مايتفى من بعد ذكره |
| ولم أمج بشاراً ولكنتي | هجوت نفسي بهجائيه |
| لم آت شيئاً قط فيما مضى | ولست فيما عشت آتية |
| أسوأ لي في الناس أحدوة | من خطأ أخطأته فيه |
| فأصبح اليوم بسببى له | أعظم شأناً من مواليه |

ومن سلوك حماد في هجاء بشار يتضح أن حماداً كان ينقصه الكثير من الإنصاف والالتزام بما يتطلبه شرف التنافس، وذلك لأنه كان يعتمد في هجائه لبشار على عاهته، ولا يبالى في ذلك بالأزمة النفسية التي تصيبه، حتى يخرج الأمر بذلك عن كونه هجاءً فنياً إلى مجرد إثارة الضغائن وتفتيت نفس بشار الذي كان يتقبل هجاءه بروح أدبية عالية ولا يجد حرجاً في إبداء إعجابه ببعض أبياته. إلى أن قال حماد:

وأعسى قلطبان ما على قاذفه حد^(١)

(١) القلطبان: القواد

| | |
|--------------------|---------------------------------|
| شبيه الوجه بالقرء | إذا ماعى القرء |
| ولو ينكه فى صلد | صفا لاتصدع الصلد ^(١) |
| دنى لم يرح يوماً | إلى مجد ولم يقد |
| ولم يحضر مع الحضار | فى خير ولم يبد |
| ولم يُخش له ذم | ولم يرح له سمد |
| هو الكلب إذا ماما | ت لم يوجد له فقد |

وحينما سمع بشار البيت الثانى بكى، (فقليل له: أثبكى من هجاء حماد، قال: والله ما أبكى من هجائه ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه، فيصفنى ولا أصفه)^(٢).

من الطبيعى إذن أن يتحول الهجاء بينهما إلى غير ذلك حتى أصبح بشار يتتبع حماداً ويحاول أن يضيق عليه رزقه، وكان الربيع بن يونس وزير المنصور قد اختار حماداً مؤدباً لولده، فكتب إليه بشار يقول:

| | |
|--------------------|----------------------------------|
| يا أبا الفضل لاتنم | وقع الذئب فى الغنم |
| إن حماد عجرد | إن رأى غفلة هجم |
| إن خلا البيت ساعة | مجمع الميم بالقلم ^(٣) |

(١) ينكه: يتنفس

(٢) الأغانى ص ٥٢٠٧

(٣) مجمع: أفسد، الميم: كناية عن الدبر، القلم: كناية عن القبل

فلما قرأ الربيع هذه الأبيات قال: (صيرني حماد دريئة الشعراء، أخرجوا عني حماداً، فأخرج)^(١).

بين حماد وبشار تشابه كبير في عدة نقاط تتعلق بالشخصية والفن والسلوك والعقيدة والمصير. فشخصية كل منهما هي شخصية الفنان الساخر الناقم على مجتمعه المتعرض لمطالب الناس وعيوبهم، حتى صار كل منهما مخشياً مهاباً، يتجنبه الناس أو يقتربون منه على استحياء وحذر.

الفن الذي جمع بينهما هو الشعر، وعلى الرغم من إبداع كل منهما في كافة أغراضه إلا أن الهجاء كان يمثل الكثرة الكاثرة في شعره، كما كان أيضاً يمثل شاعريته في أرقى مراتبها، وذلك لطبيعة الشخصية التي يناسبها الهجاء أكثر من الغزل أو المدح أو الفخر أو غير ذلك من الأغراض، كما تميز الهجاء عند كل منهما بالإفحاش والسلطة حتى أصبح شعرهم في ذلك الغرض حبيس كتب التراث، حيث لا تستطيع الدراسات الحديثة روايته إلا فيما ندر، حيث اختلفت الأذواق وتغيرت مدلولات الألفاظ، فصار اللفظ مستهجناً لا يمكن أن يرويه أديب في دراسة أو أستاذ جامعي في محاضرة، فلم يعد لهذا اللون من الشعر متنفس ومخرج إلى الناس إلا من خلال الكتب القديمة المحققة تحقيقاً حديثاً. ولا يمثل هذا الأمر عيباً في شعرهم - من الناحية الفنية - ولكنها مسألة طبيعية، فالناس يجتنبون اللفظ الخاص الذي تلوكه ألسنة العامة فيصبح بطبيعته لفضاً منبوذاً تتجنبه الألسن وتنصرف عنه الآذان.

(١) الأغاني ص ٥٢٧

والسلوك الذى يشتركان فيه هو المجون، فقد كان بشار ماجناً عابثاً، وقد بالغ مجتمعه فى تصوير مجونه وخلاعته، وهو إن لم يكن كذلك فلن يكون إلا أقل من ذلك بقليل، وحماد فاق بشاراً خلاعة ومجوناً، وزاد عليه أنه كان لوطياً يستمتع بالغلما، وله شعر فى التشبيب بـغلام يسمى «أبو بشر» يقول فيه:

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| أخى كف عن لومى فإنك لاتدرى | بما فعل الحب المبرح فى صدرى |
| أخى أنت تلقانى وقلبك فارغ | وقلبى مشغول الجوانح بالفكر |
| أخى إن دائى ليس عندى دواؤه | ولكن دوائى عند قلب أبى بشر |
| دوائى ودائى عند من لو رأته | يقلب عينيه لأقصررت عن زجرى |
| فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى | لأقصررت عن لومى وأطبت فى عدرى |
| ولكن بلائى منك أنك ناصح | وأنك لاتدرى بأنك تدرى |

كما تروى عن حماد قصص كثيرة تثبت عليه ذلك منها ما يرويه أبو الفرح قال:

(حدثنى أبو يعقوب الخزيمى يقول: كنت فى مجلس فيه حماد عجرد ومعنا غلام أمرى، فوضع حماد عينه عليه، وعلى الموضع الذى ينام عليه، فلما كان الليل اختلفت مواضع نومنا فقامت فنمت فى موضع الغلام، ودب حماد إلى يظننى الغلام، فلما أحسست به أخذت يده فوضعتها على عيني العوراء لأعلمه أنى أبو يعقوب، فنثر يده ومضى فى شأنه وهو يقول: «وفديناه بذبح عظيم»^(١)).

(١) الأغاني ص ٥٢١٧

هذا بالإضافة إلى أن كل منهما كان سكيراً عريداً. والعقيدة عندهم مضطربة، والإحساس الديني يكاد يكون منعدماً، وقد اتهم بشار بالزندقة وجعلت ستاراً لقتله، ولم يكن حماد زنديقاً عادياً وإنما كان إماماً للزندقة، وله شعر كانوا يتلونونه في صلاتهم، وكل من بشار وحماد كان يعادى واحداً من العلماء الأجلاء في ذلك العصر ويهجوهم، فقد هجا بشار واصل بن عطاء بقوله:

مالي أشابع غزاً لا له عنق كنفتك الدوَّ إن ولي وإن مثلاً^(١)
عنق الزرافة مابالي وبالكُم تكفرون رجالاً كفروا رجالاً

(فلما تتابع على واصل منه ما يشهد على إلحاده خطب به واصل، وكان الشغ على الرءاء، فكان يجتنبها في كلامه، فقال: أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المد المكنى بأبى معاذ من يقتله؟ أما والله لو أن الغيلة سحبة من سجايا الغالية لدستت إليه من يبيع بطنه في جوف منزله أو في حلقه)^(٢).

وهجا حماد الإمام أبا حنيفة النعمان، وقد كانا صديقين ثم نسك أبو حنيفة ودرس الفقه وتعلمه حتى بلغ فيه مابلغ، ويبدو أنه حاول مع حماد بعض المحاولات لإصلاحه ورده عما هو عليه، لكن حماداً أصر على ما هو فيه فرفضه أبو حنيفة وذكره في مجالسه يحذر الناس منه ومن صحبته، فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذكره، وظل أبو حنيفة يذكره بذلك حتى قال فيه حماد هذه الأبيات:

(١) غزاً: يقصد واصلًا لكثرة جلوسه في السوق، النفتق: ذكر النعام، الدو: الغلاة

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٩٩٢

| | |
|----------------------|-------------------------|
| إن كان نسكك لايتـ | ثم بغير شتى وانتقاصى |
| أو لم تكن إلا بهـ | ترجو النجاة من القصاص |
| فاعدد وقم بى كيف شئـ | ت من الأدانى والأقاصى |
| فلطالما زكيتنى | وأنا المقيم على المعاصى |
| أيام تأخذها وتمـ | طى فى أباريق الرصاص |

بعد أن سمع الإمام أبو حنيفة هذه الأبيات أمسك عن ذكر حماد خوفاً من لسانه الذى لا يتورع عن إلصاق أى تهمة مهما عظمت بالرجل الفقيه.

وقد بلغ منهما مبلغاً عظيماً فى الزندقة حتى فضلاً شعريهما على القرآن، فقد سمع بشار جارية تغنى شعره الذى يقول فيه::

| | |
|---------------------|----------------------|
| إن الخليفة قد أبى | وإذا أبى شيئاً أبيته |
| ومخضب رخص البناء | ن بكى على وما بكيته |
| يامنظراً حسناً رأيت | ت بوجه جارية فديته |
| بعثت إلى تسومنى | ثوب الشباب وقد طويته |

فطرب بشار وقال: هى والله أحسن من سورة الحشر^(١).

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٠٥٧

كما نسب لحماذ خبر كهذا، فقالوا (أن حماد عجرد كان ينشد شعراً، ورجل بإزائه يقرأ القرآن، وقد اجتمع الناس عليه، فقال حماد: علام اجتمعوا؟ فوالله لما أقول أحسن مما يقول)^(١).

وكما كان بشار لا يقرب الصلاة وكان أصحابه يضعون التراب حول ثوبه ليعلموا أيقوم أم يبقى في مكانه فلما يعودون يجدون التراب كما هو فيعلمون أنه لم يقم، كذلك كان حماد لا يصلّي بل ويستثقل الإطالة فيها على الرغم من أن الذي يصلّي غيره، وقد هجا رجلاً يسمى سهم بن عبد الحميد الذي كان يصلّي الضحى وهم ينتظرونه حتى يبدأوا الغداء، فلما أطال سهم قال حماد:

| | |
|------------------------------|-------------------------|
| ألا أيها القانت المتهدد | صلاتك للرحمن أم لى تسجد |
| أما والذي نادى من الطور عبده | لمن غير ماهر تقوم وتعمد |

(فلما سمعها سهم قطع الصلاة وجاء مبادراً، فقال له: قبحك الله يا زنديق، فعلت بى هذا كله لشبرهك في تقديم أكل وتأخيرها هاتوا طعامكم فاطعموا لا أطمعه الله تعالى، فقدمت المائدة)^(٢).

أما عن المصير المشترك الذى صار إليه كل منهما، فهو القتل بسبب الشعر، وقد رأينا كيف قتل بشار بسبب هجائه، وسرى كيف قتل حماد بسبب تشبيهه بامرأة تسمى زينب بنت سليمان.

(١) الأغانى ج ١٤ ص ٥٢٠٥

(٢) الأغانى ج ١٤ ص ٥٢١٣

كان محمد بن أبي العباس السفاح يهوى زينب فخطبها فلم يزوجه، وكان حماد صديقه ونديه، فقال له محمد: قل فيها شعراً، فقال حماد على لسان محمد:

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| زينب ما ذنبى وما ذا الذى | غضبتُ منه ولم تغضبوا |
| والله ما أعرف لى عندكم | ذنباً ففهم الهجر يا زينب |
| إن كنت قد أغضبتكم ضلّة | فاستمتبوني إننى أعتب |
| عودوا على جهلى بأحلامكم | إنسى وإن لم أذنب المذنب |

وقال أيضاً على لسان محمد بن أبي العباس السفاح:

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| ألا من لقلب مستهام معذب | بحب غزال فى الحجال مربب |
| يراه فلا يستطيع ردّاً لطرفه | إليه حذار الكاشح المترقب |
| ولولا ملك نافذ فيه حكمه | لأدى وصالاً ذاهباً كل مذهب |

فلما بلغ ذلك الشعر مسامع محمد بن سليمان - أخى زينب - نذر دمه وأصر على قتله لكنه لم يستطع لمكانة حماد من محمد بن أبي العباس، فلما مات بن أبي العباس جد ابن سليمان فى طلبه، فخاف حماد ولم يجد من يلوذ به ويستجير بحماه، فاستجار بقبر سليمان بن على - أبى محمد بن سليمان - وراح يمدحه ويمدح سليمان، فقال:

| | |
|-----------------------------|---------------------------------------|
| من مقرر بالذنب لم يوجب الله | سه عليه بسىء إقراراً |
| ليس إلا بفضل حلمك يفت | ربلاء وما يمد اغتراراً ^(١) |

(١) يغتر: ينكشف ويزول

| | |
|-------------------------------|---------------------------------------|
| يا ابن بنت النبي أحمد لا أجمع | كل إلا إليك منك الفرار |
| غير أنى جعلت قبر أبى أيسو | بلى من حوادث الدهر جار |
| وحسرى من استجار بذلك الد | لقبر أن يأمن الردى والمشار |
| لم أجد لى من العباد مجيراً | فاستجرت التراب والأحجار |
| لست أعتاض منكم فى ابتغاء العـ | من قحطان كلها ونزار |
| فأنا اليوم جار من ليس فى الأر | ض مجير أعز منه جوار |
| يا ابن بنت النبي ياخير من حطـ | ت إليه الموازب الأكوار ^(١) |
| إن أكن مذنباً فأنت ابن من كا | ن لمن كان مذنباً غفار |
| فأعف عني فقد قدرت وخير الـ | عفو ماقلت كن فكان اقتدار |
| لو يطيل الأعمار جار لعز | كان جارى يطول الأعمار |

لكن محمد بن سليمان لم يرض بهذا وقال: والله لأبلى قبر أبى من دمه، فلم يجد حماد
 بداً من الفرار إلى بغداد حيث يمكنه أن يستجير بجعفر المنصور الذى أجاره فعلاً واشترط
 لذلك أن يهجو محمداً بن سليمان فقال فيه حماد:

| | |
|-----------------------------|------------------------|
| قل لوجه الخصى ذى العار إنسى | سوف أهدى لزنبب الأشعار |
|-----------------------------|------------------------|

(١) الموازب: الإبل، الأكوار: جمع كور وهو الرجل

قد لعمري فررت من شدة الخو
وظننت القبور تمنع جارا
كنت عند استجارتى بأبى أيد
لم يجرنى ولم أجد فيه حظاً
ف وأنكرت صاحبي نهارة
فاستجرت التراب والأحجارا
سوب أبغى ضلالة وخسارا
أضرم الله ذلك القبر نارا
وقال أيضاً فى هجائه:

يا ابن سليمان يا محمد يا
إن فخرت هاشم بمكرمة
لؤمك باد لمن يراك إذا
ليتك إذ كنت ضيقاً نكراً
من يشتري المكرمات بالسمن
فخرت بالشحم منك وبالعكن^(١)
أقبلت فى العارضين والذقن^(٢)
لم تدع من هاشم ولم تكن^(٣)
لكنما العيب منك فى البدن
جداك جدان لم تعب بهما

فلما بلغ محمداً قوله قال: (والله لا يفلتنى أبداً، وإنما يزداد حنقه بلسانه، ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً). وظل ابن سليمان يطلب حماداً، وحماد ينتقل من مكان إلى مكان يبحث عن مأوى وملاذ حتى أدركه بن سليمان فى منطقة تسمى الأهواز، فأرسل مولى له فظفر به فقتله.

(١) العكن: البطن المتدلى من السمرة

(٢) العارضان: الخدان

(٣) نكر: خبيث

شعراء قتلهم شعرهم

امروء القيس

سأل امرؤ القيس زوجته أم جندب عما يكره النساء منه، فقالت: يكرهن منك أنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، وسأل أخرى نفس السؤال فقالت: يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب، فقال: أنت صدقتني، إن أهلي أرضعونني بلبن كلبة.

هكذا قدر للأمير الشريف، والشاعر المرفه الحس أن يواجه واقعاً مرأياً يعز على مثله أن يتحملة، فما حاجة النساء لشاعر فصيح، رقيق العبارة، جزل اللفظ، دقيق التصوير، إذا كان في الفراش ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، أو إذا كان يعرق فيفوح بريح كلب.

وهكذا أصبح الأمير يشعر بانحطاط نفسه أمام المرأة التي يشتتها ولا يجد سبيلاً للوصول إلى إعجابها، ويستمتع بها لا يستطيع أن يتمتع بها، فسرعان ما لجأ إلى الشعر الذي يستطيع من خلاله أن يشبع الحكايات والمغامرات التي يكون فيها الرجل الذي لا يستطيع أن يكونه في الواقع، فهو في شعره رجلٌ فحل، تشتهيه النسوة، ويرحبن بمقدمه في أي وقت، غير مباليات بالأهل ووجودهم في سامرهم، وربما كان فيهم أزواجهن.

يقول في إحدى قصائده:

| | |
|----------------------------|---|
| سموت إليها بعدما نام أهلها | سمو حباب الماء حالاً على حال ^(١) |
| فقلت: سبناك الله إنك فاضحي | ألست ترى السمار والناس أحوالي |

(١) حباب الماء: قطراته

فقلت يمين الله أبرح قاعداً
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
حلفت لها بالله حلفة فاجبر
لناموا فما إن من حديث ولاصال^(١)
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
هصرت بغصن ذى شماريخ ميال^(٢)
وصرنا إلى الحسنى ورق كلا منا
وأصبحت معشوقاً وأصبح بعليها
عليه القتام، سىء الظنن والبال^(٣)
يغط غطيط البكر شد خناقه
ليقتلنى والمرء ليس بقتال^(٤)
أيقتلنى والمشرفى مضاجمى
ومسنونة زرق كائباب أغوال^(٥)
وليس بلدى سيف وليس بنبال
أيقتلنى وقد شغفت فؤادها
كما شغف المهنوء الرجل الطالى^(٦)
وقد علمت سلمى وإن كان بعليها
بأن الفتى يهذى وليس بفعال

من خلال هذه الأبيات حاول امرؤ القيس أن يصور نفسه عاشقاً استبد به الشوق حتى هانت أمامه كل المخاطر التى تعترض سبيله إلى محبوبته، حتى سما إليها فى خفة ورشاقة كقطرات الماء التى يعلو بعضها بعضاً فى هدوء ويسر، ثم لما وصل إليها ووجدها مضطربة من أثر المفاجأة اخذ يقسم لها أنه لن يذهب حتى لو قتلوه ومثلوا به، فلا فائدة إذن من الاضطرابات أمام عاشق مُصرٍ على قضاء لحظات الوصل العذبة، ولا مانع من أن يحلف لها

(١) صال: مصطل بالنار، يستدفئ

(٢) هصرت: جذبت، الغصن أراد به جسمها، ذى شماريخ: يقصد شعرها

(٣) القتام: الغبار (٤) يغط: يردد صوتاً كصوت المختنق، البكر: الجمل الصعب ترويضه

(٥) المشرفى: السيف، الأغوال: جمع غول (٦) المهنوء: المطلية بالقطران

كاذباً أن الناس قد ناموا ولم يعد هناك من يتحدث أو يجلس أمام النار طالباً دء لهيبها، فلما اطمأنت بدأت تبادل الحديث الحلو الهادئ، وقد انقادت له بعد صعوبة، وسهلت بعد تمنع، فانتزع هواها، وخلق فؤادها، فأحبته وكرهت زوجها الذي عاد مغبراً كاسف البال، فلما عرف ماكان من أمرهما، اختنق غيظاً كجمل فتى شد من خناقه بحبل، يريد قتله ولكن ليس في وسعه أن يقتل من لايفارق سيفه، مسنون السهام، محدد الأزجة، صافية كأنها أنياب غيلان، وهو لايملك رمحاً يطعن ولاسيفاً يشهر، ولانبالا ترمى، وحتى لو قتله فأزاحه من طريقه لن يسعد معها، فقد ملك شاعرها شغاف قلبها، كما تستلذ الناقة المطلية بالقطران، وقد علمت سلمى أن زوجها ثرثار قوال يتحدث كثيراً ولايعمل شيئاً.

وفي معلقته التي بلغت ثمانية وسبعين بيتاً كان من الطبيعي أن نرى المرأة تتسلل إلى أبياتها من خلال الوصف تارة ومن خلال دورها كبطلة في مغامرة عاطفية تارة أخرى، يقول:

| | |
|-------------------------------|---|
| ويضة خدر لايرام خباؤها | تمتعت من لهو بها غير معجل ^(١) |
| تخطيت أهوالاً إليها ومعشراً | على حراساً لو يسرون مقتلى |
| إذا ما الثريا في السماء تعرضت | تعرض أثناء الوشاح المفصل ^(٢) |
| فجئت وقد نضت لنوم ثيابها | لدى الستر إلا لبسة المتفضل ^(٣) |
| فقلت: بين الله مالك حيلة | وما إن أرى عنك العماية تنجلي ^(٤) |

(١) يضة: أراد بها المرأة لصفائها ورقتها

(٢) الوشاح: خرز ملون، المفصل: الذي فصل بالزبرجد

(٣) نضت: نرعت، المتفضل: الذي يلبس ثوباً أحداً

(٤) العماية: الاستهتار

خرجت بها تمشي تجر وراءنا
على أثرنا ذيل مرط مرحل^(١)
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن حقف ذى ركان عقنقل^(٢)
إذا التفت نحوى تضوع ريحها
نسيم الصبا جاءت برريا القرنفل^(٣)
هصرت بفودى رأسها فتمايلت
على هضم الكشح ريا المخلخل^(٤)

فى هذه المغامرة (يرسم فى صورة متكاملة كيف اقتحم الأهوال إليها، وتخطى القوم برغم يقظة هؤلاء، ومنعة بيتها، وتربص أهلها به، وإصرارهم على قتله لو استطاعوا أن يفعلوه خفية، وماهم بقادرين لحسبه ونباهته، وقد بلغ بيتها والثريا تتوسط السماء، تلعب فيها بين النجوم لمعان لؤلؤة تتوسط خرزاً فى ثوب موسى. وكانت صاحبتة تأخذ أهبته لتنام، خلعت ثياب اليوم وارتردت ثوب النوم، فلما فاجأها جرى بينهما حديث وحوار، أقسمت له أنها استنفدت جهدها فى دفعه، فلم يبق لها حيلة، وأنه مغرق فى استهتاره، فلا سبيل له أن يتعقل، ومابقى أمامها إلا أن تطيعه، فخرجت معه إلى مكان قصى من الحى حيث لا تراهما العيون، وقد ارتدت ثوباً طويلاً تجر وراءها ذيله، فيمحو كل أثر تخلفه أقدامهما، وقد تطيبت بمسك ينتشر منها قوياً، كما لو كان نسيماً رقيقاً مر بديار عامرة بزهور القرنفل فإذا داعبها مالت عليه دقيقة الخصر ريانة الساق)^(٥).

وحتى تكتمل مظاهر الفحولة لم يكن هناك بدء من تصوير مغامرة يكون فيها امرؤ القيس مرغوباً فيه، مسعياً إليه، تترك لأجله عظام الأمور، وحبذا لو كانت معشوقته هذه أو عاشقته

(١) المرط: ثوب من الحرير أو الصوف يؤتز به، مرحل: موسى

(٢) الحقف: من الرمل أى المعوج، ركام: أى بعضه فوق بعض، عقنقل: منعقد متداخل

(٣) تضوع: انتشر وتحرك، ريا: راحة (٤) هصرت: جذب، فودا الرأس: جانباه، الهضم: الضامر، ريا: ممثلة

(٥) امرؤ القيس حياته وشعره للدكتور الطاهر أحمد مكى ط. دار المعارف ص ١٨٩

كما أراد تصويرها أما لرضيع، ليتوزع قلبها بين رضيعها وحبيبها، فتقوم المفاضلة بينهما، ويقوم الصراع بين عاطفة الأمومة وعاطفة المرأة المحبة، فهي تخشى إذا تخلفت عن حبيبها أن يسيء بها الظن ويسوؤها إذا جاءته أن تدع وليدها يبكي، وحتى يأخذ العدل مجراه قبل الحكم في ذلك الصراع كان لابد من تمثيل حضوره عندها برسول منه إليها يدعم موقفه عندها، حتى يكو الاختيار بين حاضرين، لا بين حاضر وغائب.

ثم لما انحسم الصراع لصالح الحبيب، جاءته تمشى بحذر يشوبه القلق وكأنها تقطف الخطأ من الأرض كأنها السكران يخشى أن يدركه الناس في الطريق، فلما وصلت إليه لم يجد في صبره مساحة لحديثها فراح تكلمه وهو يجرد لها من ثيابها، وتقول له: لو أن شيئاً آخر طرأ في هذه الساعة من الليل لما أعرتة أى اهتمام، أما أنت فلا أستطيع لك دفعا وقضيا الليل قتيلين لا يعرف لهما الناس مصرعا، تسعده وتدفع عنه الهم، ويمتعها وينأى بها عن الملل، ثم انقطع بينهما عادى الحديث وحل مكانه آخر أخفت صوتا، وأعذب مضى، ولفتها الستائر، فإذا أخذتها هزة النسوة، أمسكت بذراعيه تدنيه منها، فإذا بهما ذراعان قويان لرجل مقدم على الأهوال. يقول امرؤ القيس:

| | |
|------------------------------|---|
| ومنهن سوفى الخود بللها الندى | تراقب منظوم التمايم مرضعا ^(١) |
| يعز عليها ريتى ويسوؤها | بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعا ^(٢) |
| بمشت إليها والنجوم طوالسع | حذارا عليها أن تقوم فتسمعا |

(١) الخود: المرأة الحية

(٢) يتضوع: يشتد بكاؤه

| | |
|------------------------------|---|
| نقامت قطوف المشى هائبة السرى | يدافع ركنها كواعب أربعا ^(١) |
| يزجنيها مشي النزيف وقد جرى | صباب الكرى فى مخه فتقطعا ^(٢) |
| تقول وقد جردتها من ثيابها | كما رعت مكحول المدامع أثلعا ^(٣) |
| أجدك لوشىء أئانا رسوله | سواك ولكن لم نجد لك مدفعا |
| فبتنا نصد الوحش عنا كأننا | قتيلان لم يعرف لنا الناس مصرعا ^(٤) |
| نجافى عن المائور بيني وبينها | وتدنى عليها السابرى المضلعا ^(٥) |
| إذا أخذتها هزة الروع أمسكت | بمكب مقدام على الهول أروعا ^(٦) |

هذا بعض من شعر امرىء القيس فى المرأة، وديوانه يضم العديد من النساء بمقدار مغامراته معهن، وبتعدد المغامرات وتعدد طبائع النساء، (نرى فاطمة المتدلة المعزوزة، وليلى الناسية الذاكرة، وعنيزة المتمنعة المستجيبة، وأسماء المتحولة المتقلبة، وسلمى الغرة النافرة، وماوية الخبيثة الماكرة، مهر اللعوب المستجيبة، ورقاش البخيلة الباذلة، ونساء كثيرات لا يذكر أسماءهن، فيهن الساقطة المحتجبة، والساذجة العاقلة، والخائفة المتكبرة، ومن تقتصر حبها على رجل، ومن تهب نفسها للناس جميعا)^(٧).

ومنهن من لها قوم يغارون عليها، ومن لا يمثل زوجها ثقلاً فى البادية من الرقيق أو عامة الناس، يأتيها امرؤ القيس ولا يقيم لزوجها وزناً، وهناك المرأة الأم، والشابة الفتية، والصبية

(١) قطوف الخطأ: مشيها متقارب، ركنها: جنبها

(٢) يزجى: يسوق، النزيف: السكران، صباب الكرى: بقية النعاس

(٣) مكحول المدامع: ولد الظبية، أثلغ: طويل العنق

(٤) الوحش: الهم وربما قصد الوحشة

(٥) السابرى: نوع الثياب

(٦) هزة الروع: ارتعاده النشوة

(٧) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

المراهقة، والحررة والجارية، حتى بائعة الهوى ليس من حرج فى أن يلج دارها، فديوانه إذن يصلح أن يكون مرجعاً لدراسة الحالة الاجتماعية للمرأة فى العصر الجاهلى، ذلك فضلاً عن دراسة الغزل وطبيعته فى ذلك العصر فهذه من الدراسات الموجودة بالفعل.

يطرح أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى سؤالاً عن طبيعة شعر امرئ القيس فى المرأة فيقول: (لم شغل امرؤ القيس دون غيره من شعراء عصره بالمرأة فوصفها ذكريات وبدناً، وصورها حرة وبغيا، وحدثنا عنها طالباً ومغامراً؟)^(٧).

ثم يقدم لسؤاله جواباً فيقول:

(الجواب يكمن فى نشأته العائلية، كان أبوه متزوجاً بأكثر من امرأة ولسنا نعرف على التأكيد مكانة أمه من قلب أبيه، لكن واقع الحال ينبىء - إذا أخذنا برواية أنها أخت يزيد بن كبشة - وأنه كان زواجاً قبلياً، تمليه صلة القرابة ودواعيها دون أن ينظر فيه إلى عماد أى زواج ناجح، من توافق فى العواطف والميول، وامرؤ القيس يصمت عن أمه تماماً، لا يعرض لها ولا مرة واحدة، فهل يسوغ لى هذا الصمت أن أفترض أنه افتقدها طفلاً صغيراً، فلم يبق لها فى ذاكرته أدنى نصيب حين قوى عوده واشتد ساعده؟ بلى ذلك ماأراه، من غير أم أمضى امرؤ القيس طفولته وشب يتيماً ضائعاً، أبوه فى شغل عنه بملاذه وملكه، وقاسٍ معه فى تربيته وحسابه، وفى البيت يفتقد العاطفة الودود، فشب وقلبه صحراء مجذبة يغمرها الخوف والوحدة، وشيء يمكن أن يملأ قلب الرجل الخالى، هو قلب المرأة وفى الوقت نفسه

(١) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

هى أمضى سلاح لقتل الخوف، واجتثاث الوحدة، والمرأة القادرة هى المرأة الفاتنة، وفنتتها تتمثل فى كمالها خلقة وتصويراً. وهذا هو السبب فى أن امرأ القيس قصر شعره ومشاعره على الجانب الحسى وحده فى جمال حبيباته.

ويمكن أن أضيف إلى ذلك سبباً آخر، هو أنه لم تكن هناك فرصة له - ولالغيره - لكى يلقى الحبيبة دوماً، فى غير لحظات اللهو العاجلة، ليكتشف الجانب الخفى من فضائلها، لأن المجتمع الجاهلى رغم أنه لا يعرف الحجاب، ولا يمنع الاختلاط، كانت تحكمه تقاليد تجعل من الرجل جليس نده، ومن المرأة سميرة بنت جنسها، فكان ثم فصل بين الجنسين تقليداً متعارفاً، فلا يرى الرجل من جمال المرأة إلا جانبها الخارجى، وهو جمال رغم ماديته يعكس جانباً كبيراً من فضائلها النفسية، لأنه جوهر وتعبير، وتجسيم لروحها قبل أن يكون دماً وأعصاباً ومادة، والحب الحسى، كالعشق العدرى، ينبعث عن عاطفة ويعبر عن شعور^(١).

قبل أن نسجل تحفظنا على هذا الجواب نسجل أولاً تحفظنا على السؤال، فشعر امرئ القيس فى المرأة لم يخل تماماً من تصوير نفسية المرأة، وإلا فمن أين عرفنا أن فاطمة متدلة معزوزة، وليلى ناسية ناكرة، وعنيزة متمنعة مستجيبة، وأسماء متحولة متقلبة، وسلمى غرة نافرة، وماوية خبيثة مأكرة، لعوب مستجيبة، ورقاش معترضة باذلة، وكل هذه أسماء لنساء ذكرهن الرجل فى شعره وحكى مغامراته معهن التى من خلالها استطعنا أن نقف على الوصف النفسى لهؤلاء النسوة، لكن الواقع هو قلة ذلك الوصف النفسى بالنسبة لجملة شعره.

(١) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

أما عن سلوكه الماجن والذي أرجعه أستاذنا إلى نشأته العائلية وخاصة فقدته لأمه، فنحن نرى ذلك ظناً لا يرقى إلى الواقع، فلم تثبت المصادر أن امرأة القيس نشأ يتيماً، ولو كان لهذا الأمر أهمية لما أغفله مؤرخو الأدب القدماء، فإما أنه لم ينشأ يتيماً لذلك لم يذكر في سيرته يتمه، وإما أنه نشأ يتيماً فعلاً وأغفل المؤرخون ذلك لعدم أهميته في التأثير على سلوكه وشعره، فالعرب في هذه الفترة من الزمن كانوا يرسلون أطفالهم الرضع إلى البوادي حيث يقضون فترة طفولتهم الأولى، عند المراضع فينشأون على خشونة البادية فيشتد عودهم ويخشوشن طبعهم في رمال الصحراء الملتهبة وتحت شمسها البقطة، كما متاح لهم فرصة تلقى اللغة العربية من ألسنة أهل البادية وهم أفصح من أهل الحضر فينشأ الطفل طلق اللسان فصيحاً، ثم يعود إلى أهله بعد تلك الفترة التي غالباً ما تكون نهاية اللهو والعبث الصبباني، فيعهد له أبوه بعمل يسير كرعى الغنم حيث يقضى نهاره في عمله ويقضى بعض ليله مع رفاقه ممن هم في مثل سنه وغالباً يعملون نفس عمله، أو مع أبيه في مجالس الرجال، وبذلك تكون علاقته بأمه علاقة محدودة، فلا يرى لصبي مائت أمه أو فارقت أباه مطلقة عائدة إلى مضارب قبيلها، كما أن العرب تعرف اليتيم بموت أبيه قبل أن يبلغ الحلم، لا بموت أمه، أما عدم ذكر امرئ القيس لأمه في شعره فلا يسوغ افتراض أنه افتقدها صغيراً، وإلا اعتبرنا الكثرة الكاثرة من شعراء العربية أيتاماً لنفس السبب.

لعل هذا السلوك راجع إلى كراهية النساء له وعدم رغبتهن فيه، فالتناس أمام ذلك الأمر ينقسمون قسمين، فمنهم من يجتنب النساء ويعاديهن ويعلل ذلك بعلّة يرتضيها، ومنهم من يعتبر المسألة شخصية ويرى الخلل في كل امرأة يقابلها فيظل يبحث عن امرأة بريئة من هذا الخلل، فكان امرؤ القيس باحثاً عن امرأة تحبه، لانقول تسعى إليه ولكن على الأقل تتقبل

سعيه إليها، كان يبحث عن امرأة لا ترى صدره ثقيلًا ولا عجزه خفيفًا ولا إراقة سريرة ولا إفاقته بطيئة، كان يبحث عن امرأة تعانقه فلا تشم له رائحة كلب، كان يبحث عن امرأة تضمد الجرح الذي نكأته أم جندب بوصفها^(١) الذي أدمى رجولته وهوى بكبريائه إلى الحضيض.

فى غمرة اللهو والعبث قدر على الشاعر الرقيق أن يتحمل وحده ودون إخوته عبء الأخذ بثأر أبيه الذى قتله قبيلة أسد، ولقد جاءه خبر مقتل أبيه وهو فى قرية يقال لها «دمون» فى حضرموت، وكان يجالس نديماً له يشربان الخمر ويلعبان النرد، فلما أعلمه الناعى الخبر لم يلتفت إلى قوله واستمر فى اللعب حتى لا يفسد على صاحبه المجلس، فلما انتهى من اللعب التفت إلى الناعى وقال: «ضيعنى صغيراً وحملنى دمه كبيراً، لاصحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر، ثم قال:

خليلى لافى اليوم مصحى لشارب ولا فى غدٍ إذ ذاك ما كان يشرب

ثم شرب سبعا فلما صحا آلى ألا يأكل لحماً ويشرب خمراً، ولا يدهن بدهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه من جنابة، حتى يدرك بثأره^(٢).

ولكن كيف يدرك ثأره وثأره عند قبيلة عظيمة لا يستهان بها عدداً وعتاداً، وليس عند فرد يقتله وينتهى الأمر، إلى جانب أن كندة - قبيلة امرئ القيس - كانت تعتمد على أصدقاء فى الجنوب تلاشى سلطانهم، كما أن أعداءهم فى الحيرة كانوا ضعافاً فأصبحوا أقوياء، كما

(١) أنظر أول صفحة من هذا الفصل

(٢) الأغاني ص ٣٢٠٨

أن العصبية الكندية قد اندثرت وتلاشت تقريباً، فكيف يدرك شاعرنا ثأره ولا سبيل إلى حلٍ آخر؟!

ولقد «قدم على امرئ القيس بن حجر بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بنى أسد كهول وشبان، فيهم المهاجر بن خدّاش بن عم عبيد بن الأبرص، وقبيصة بن نعيم، وكان في بنى أسد مقيماً وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور ورداً وإصراراً، يعرف ذلك له من كان محيطاً بأكناف بلده من العرب، فلما علم بمكانهم أمر بإنزالهم وتقدم بإكرامهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثاً، فسألوا من حضر من رجال كندة فقال: هو في شغل بإخراج مافي خزائن حجر من السلاح والعدة، فقالوا: اللهم غفرأ، إنما قدمنا في أمر نتناسى به ذكر ماسلف ونستدرك به مافرط، فليبلغ ذلك عنا، فخرج عليهم في قباء وخف وعمامه سوداء، وكانت العرب لاتعتم بالسواء إلا في الترات، فلما نظروا إليه قاموا له، وبدر إليه قبيصة قائلاً: إنك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدّثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب، لك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، ورجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل لأذى عمت رؤيته نزاراً واليمن، ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع، كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرامنا على مثله، ولفديناه منه، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه، ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال: إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً، وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات

حسامك.. أو فداء بما يروح من بنى أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداءً رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردده تسليط الإحن على البرءاء، وإما أن توادعنا حتى تضع الجوامل فنسدل الأزر ونعقد الخمر فوق الرايات، فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لا كفء لحجز في دم، وإنى لن أعتاض به جملاً ولاناقة فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون سبباً لعطبا وستعرفو طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقاً^(١).

وانصرف بنو أسد مثقلة عواتقهم بهذا الجواب، وانطلق امرؤ القيس في الجزيرة باحثاً عن نصير يعينه على الأخذ بثأره واسترداد ملك أبيه الضائع وقد لجأ أول ما لجأ إلى قبيلتين من أقوى القبائل العربية هما بكر وتغلب وقد عاونوه وأمدوه بالجنود والسلاح، فانطلق طالباً بنى أسد الذين رحلوا حين علموا بمقدمه فأصاب قوماً من بنى كنانة وهو يظن أنهم بنو أسد ووضع السيف فيهم وهو يصيح: يالثرات الملك، يالثرات الهمام، فخرجت إليه عجوز من بنى كنانة، فقالت: أبيت اللعن، لسنا لك بثأر، نحن من كنانة، فدونك ثأرك فاطلبهم، فإن القوم قد ساروا بالأمس، ثم تبع بنى أسد فأدركهم وقتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم، ثم حال الليل بينهم، وهربت بنو أسد، فلما جاء الصباح أراد امرؤ القيس أن يعيد الكرة عليهم لكن بكرأ وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: قد أصبت ثأرك، قال: ما فعلت ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم من بنى أسد أجدأ، قالوا: بلى، ولكنك رجل شثوم،

(١) الأغاني ص ٣٢٢٣

وانصرفوا عنه وتركوه.

ثم خرج امرؤ القيس من فوره إلى اليمن فاستنصر قبيلة تسمى «أزد شنوءة» فأبوا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيراننا، فنزل بقريب له يدعى مرثد الخير بن ذى جدان الحميري فاستنصره واستمده على بنى أسد، فأمدّه بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس بهم، وخلفه رجل يقال له قرمل بن الحميم، فأخذ يسوف امرأ القيس ويطول عليه حتى همّ بالانصراف عنه وقال فيه:

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا وإذ نحن لاندعى عبيداً لقرمل

فلما سمع ذلك منه أنفذ له الجيش، واستأجر من قبائل العرب رجالاً ثم سار بهم إلى بنى أسد، ومر بموضع في جنوب مكة يسمى «تباله» وبه صنم للعرب تعظمه، يسمونه «ذو الخلصة» واستسقم عنده بقداح ثلاث هي الأمر والنهي والمتربص، فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي ثم أجالها ثالثة فخرج الناهي للمرة للأخيرة، فاغتاظ امرؤ القيس، وجمع القداح وضرب بها وجه الصنم وقال له: «لو كان أبوك الذي قتل ماعقتي»^(١).

ثم خرج فظفر ببني أسد، فلم يستقسم عند ذى الخلصة بعدها حتى جاء الإسلام فهدم هذا الصنم.

ولعداوة قديمة بين المنذر ملك الحيرة وبين كندة خشي المنذر أن ينجح امرؤ القيس في أن يعيد لكندة سطوتها، فوجه إليه الجيوش، وأمدّه كسرى أنو شروان بجيش من الأساورة

(١) الأغاني ج ٩ ص ٣٢١٣

فسرحهم فى طلبه، وتفرقت عن امرىء القيس حمير ومن كان معه فلم تعد له بهم طاقة فنجأ فى جماعة من أهله ونزل بالحارث بن شهاب من بنى يربوع بن حنظلة، ومعه الدروع التى كان أجداده يتوارثونها، فأرسل المنذر إلى الحارث يتوعده بالحرب إن لم يسلم له الكنديين اللاتيين به، فأسلمهم إليه، فقتل المنذر منهم إثنى عشر فتى من امرائهم، ولم ينس امرؤ القيس لبنى حنظلة موقفهم منه، فاتخذهم مثلاً للغدر والخذلان والخبث والشر، فكان إذا هجا قوماً شبههم ببنى حنظلة وإذا مدح قوماً ارتفع بهم عن ذلك التشبيه.

لجأ امرؤ القيس من المنذر ومعه ابنته هند وأدرعه وسلاحه، ونزل على رجل يسمى سعد بن الضباب الإيادى سيد قبيلة إياد فأجاره، لكن المنذر ظل يطلبه فتحول عن سعد الإيادى إلى رجل يسمى المعلى بن تيم من جديلة طىء، وعنده فكر امرؤ القيس أن يستقر زمناً، لكن بقية قوم المعلى ضاقوا به، وطردهوا رواحله فخرج من عندهم قاصداً رجلاً يسمى خالد بن أصمع النبهانى، فأغار بنو جديلة عليه وذهبوا بإبله، ففارق امرؤ القيس بنى نبهان ونزل عند رجل خليع فأتاك يسمى عامر بن جوين الذى طمع فى أموال امرىء القيس وابنته هند، وقال فيها شعراً، فلما عرف امرؤ القيس ذلك منه، خافه على أهله وماله فتغفله وانتقل إلى رجل يسمى جارية بن مر بن حنبل، من بنى ثعل، فاستجار به، ووقعت الحرب بين عامر بن جوين وبين جارية من أجله، فدافع بنو ثعل عنه وقدر لهم امرؤ القيس موقفهم وشكرهم فى قصيدة هجا فيها خالد النبهانى الذى توانى عن استرداد رواحله التى أغار عليها بنو جديلة وهو فى جواره.

فلما وقعت الحرب بين طىء من أجله خرج من عندهم ونزل عند رجل من بنى فزارة يسمى عمراً بن جابر بن مازن، وعنده فكر فى الذهاب إلى قيصر ليستنصره على بنى أسد،

ولما وصل إلى قيصر قبله وأكبرمه وأنزله منزلة حسنة، فاندس رجل من بنى أسد يسمى «الطماح» وكان امرؤ القيس قد قتل أخاً له، فقال لقيصر: «إن امرأ القيس غوى عاهر وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرأسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك، فبعث إليه حيثئذ بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: إني أرسلت إليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إلى خبرك من منزل إلى منزل، فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمي ذا القروح، وقال فى ذلك:

لقد طمح الطمح من بعد أرضه ليلبسنى مما يلبس أبؤسا

فلو أنها نفسى ثوت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها...، ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت فى سطح جبل يقال له العسيب فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال:

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة»^(١).

لأنستطيع أن نشير إلى قصيدة أو مقطوعة أو بيت ونقول إن هذا هو الذى قتل امرأ

(١) الأغانى ص ٣٢١٩ وما بعدها


القيس، فالرجل كما رأينا قد قتل بسبب وشاية الطماح، وهو لم يقل شعراً فى ابنة قيصر، فكيف يحق لنا أن نقول إن امرأ القيس قد قتله شعره؟!

لاشك أن الطماح كان مصيباً فى النفاذ إلى نقطة إثارة حفيظة قيصر على امرئ القيس حينما ذكره بعهره وشعره الماجن فوضعه أمام فضيحة كبيرة لا يمكن أن يتجنب حدوثها إلا بقتل الرجل، ولعل سلوك امرئ القيس الخليع وشعره الصارخ مجونا كانا معروفين لدى قيصر، ولعله كان يتوقع مثل ذلك منه، وإلا لاختار الطماح وشاية أخرى أوقع تأثيراً عند قيصر، لكنه أدرك مكان الجرح فنكأه، لذلك لم يصبر قيصر حتى يتحقق من هذه الوشاية، وهذا دليل على توقعه لحادثة كهذه، لذلك لم يكن عقابه لامرئ القيس عقاباً عادياً وإنما رداً على العار الذى توقع أن يلبسه لقيصر من خلال قصيدة أو عدة قصائد فى وصف مغامرة أو عدة مغامرات مع ابنته، رداً على ذلك ألبس قيصر حلة مسمومة يتساقط من تحتها جلده.

لذلك نستطيع أن نقول دون مغالاة أن امرأ القيس قد قتله شعره، أى شعره؟ كل شعره.

محتويات الكتاب

| | |
|-----|------------------------|
| ٥ | الإهداء |
| ٧ | هدبة بن خشرم |
| ١٥ | كعب الأشقرى |
| ٢٣ | عبيد بن الأبرص |
| ٣١ | أبو العبر |
| ٣٩ | السليك بن السلكة |
| ٤٥ | الكميت |
| ٧١ | المتنبى |
| ١٠٧ | أبو نخيلة |
| ١١٧ | مزاحم بن عمرو |
| ١٢٧ | طرفه بن العبد |
| ١٣٩ | أعشي همدان |
| ١٤٩ | وضاح اليمن |
| ١٦٥ | بشار بن برد |
| ١٨٧ | حماد عجرد |
| ٢٠١ | أمرؤ القيس |


الطبع والنشر للطباعة والنشر
٢٨ شارع المطار - عين شمس
ت: ٢٤٣٩٣٢٧ - ٢٩٨٦٩٦٥

هذا الكتاب

الشعر صورة من صور البيان والبلاغ وهو فن محبب إلى النفوس وكان في الماضي يعد الوسيلة الإعلامية الأولى التي تؤثر في الناس. فمن ثم عدت من الأنشطة محل الاهتمام من قبل الحكام الذين كانوا يستثمرون الشعراء في مدحهم وتحسين صورتهم والدفاع عن مواقفهم وسياساتهم.

غير أن هناك من الشعراء من شذ عن الطريق وسلك سبيل المخالفة وقام بمناصرة فرق وتيارات معادية لبعض الخلفاء والسلطين وأصحاب النفوذ. فكان مصيرهم الموت..

وهذا الكتاب يلقي الضوء على هؤلاء الشعراء الذين سلكوا هذا السبيل. وسقطوا ضحية شعرهم.

الناشر